فرانسواز ساغان

امرأة عند حافة الأربعين

رواية



آرام

ترجمة: معن عاقل

ss

الكتاب: إمرأة عند حافة الأربعين

المؤلف: فرانسواز ساغان

المترجم: معن عاقل

الغلاف: أحمد كريم منصور

الإخراج: أمل عصفور

الطبعة الاولى 1999

دار آرام للثقافة والكتب

سورية - دمشق - هاتف 6816234 - 6316870

تلفاكس 6316870 - ص. ب 36130

الكمبيوتر والإشراف الفنى: دار آرام

فرانسواز ساغان

امرأة عند حافة الأربعين

ترجمة : معن عاقل

ss

1

كانت بول تتأمل وجهها في المرآة، وتتفحص الإخفاقات المتراكمة عليه طوال تسعة وثلاثين عاماً، إخفاقاً إثر إخفاق،دون أن يخالجها أي أثر للخوف أو النكد المألوفين في هذه الحال، إنما بهدوء يكاد لا يُلحظ. كما لو أن البشرة الباردة التي تشدها بين إصبعيها أحياناً، لتستوضح تغضناً وتُبرز ظلاً، إنما هي لشخص آخر، لبول أخرى منشغلة بشغف بجمالها، وهي تَعبُرُ بصعوبة من طَورِ الصبية اليانعة إلى طور المرأة الناضجة: امرأة تتعرف عليها بمشقة. لقد جلست أمام هذه المرآة لتقتل الوقت، جعلتها هذه الفكرة تبتسم، لتكتشف أن الوقت هو الذي يقتلها على نار هادئة وبرفق، وهو يهاجم هذا المُحيا الذي تعلم بأنه كان محبوباً.

الساعة هي السابعة الآن، ولابد لروجيه أن يأتي في التاسعة، أمامها متسع كبير من الوقت. وقت لتستلقي على سريرها، بعينين مغمضتين، ولا تشغل بالها بشيء. وقت

للاسترخاء والراحة. ولكن لماذا كانت تفكر بانشداد وإجهاد؟ وبماذا يجب عليها أن تفكر حتى يتعين عليها أن ترتاح في المساء؟ وهذه اللامبالاة القلقة التي تقودها من حجرة إلى أخرى، ومن نافذة إلى أخرى، سبق لها أن خبرتها جيداً. إنها لا مبالاة الطفولة، لا مبالاة الأيام الماطرة.

دخلت الحمام، انحنت لتلمس الماء في المغطس، فذكرتها هذه الحركة فجأة بأخرى حدثت قبل خمسة عشر عاماً. كانت بصحبة مارك يقضيان عطلتهما سوية للسنة الثانية فساورها إحساس حينئذٍ بأن كل ذلك لا يمكن أن يدوم. كانا على متن مركب مارك الشراعي، والشراع يخفق في الريح كقلب متوجس، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها. فجأة، أحست بالغبطة تغمرها، وأنها راضية عن كل ما في حياتها، وكل الناس، مدركة بومضة خاطفة أن كل شيء على ما يرام. وكيما تخفي وجهها، انحنت على حافة المركب، محاولة غمس أصابعها في المياه الهاربة. مال المركب الصغير على جنبه، فرمقها مارك بواحدة من نظراته الفاترة التي ينفذ بها إلى سريرتها، وعلى الفور كانت السخرية قد حلت في أعماقها محل الغبطة.

مؤكد أنها شعرت بالسعادة فيما بعد، مع أو بواسطة الآخرين، لكنها لم تكن قط بتلك الطريقة الفريدة والكلية. في النهاية باتت هذه الذكرى أشبه بذكرى وعدٍ لم نفِ به.



لقد أوشك روجيه على المجيء. سوف تشرح له، ستحاول أن تشرح له. سيقول: (أجل، بالتأكيد) بنوع من الرضى الذي يعتريه كلما اكتشف خدع الحياة، وبحماس جدي للتعليق على سخافة الوجود، وإصرارهم على إطالته. إلا أنه يستعيض عن كل هذا، بحيويته التي لا تهدأ، وشهواته الجامحة، وفي الواقع، برضى عميق لكائن لا يتوقف إلا في رقاده. وهكذا، فهو يغرق في النوم من فوره، ويده على قلبه، حريص على حياته في نومه كما في يقظته. لا، لن يكون بوسعها أن تشرح لروجيه أنها متعبة، وأنها ضاقت ذرعاً بهذه الحرية المنتصبة بينهما مثل قانون، هذه الحرية التي يستفيد منها وحده، والتي لا تمثل بالنسبة لها سوى الوحدة. لن يكون بوسعها أن تقول له إنها تشعر أحياناً كأنها واحدة من أولئك النسوة الشرسات والمُتَمَلِّكات اللواتي يمقتهن. فجأة، تبدت لها شقتها المقفرة مخيفة، وعديمة النفع.

رن روجيه الجرس في الساعة التاسعة، وفيما هي تفتح له الباب، وتشاهده مبتسماً، وهو يقف أمام الباب، بقده المائل للضخامة قليلاً، قالت لنفسها مرة أخرى وبخضوع، إن هذا هو قدرها، وأنها تحبه. أخذها بين ذراعيه:

– ما أجمل ما ترتدين... يؤلمني غيابي عنك. هل أنت وحيدة؟.

– أجل، أدخل.

ماذا كان سيفعل لو أنها أجابته: (لا. أنت مخطئ؟) لكنها لم تقل ذلك مطلقاً منذ ست سنوات. لم يكن ليفوته أن يسألها

ss

هذا السؤال، وأن يعتــذر أحياناً عـن إزعاجهـا، بخبـث كـانت تلومه على ذلك السؤال أكثر مـن لومهـا لخيانتـه لهـا. (لم يكـن بوسعه أن يتقبل فكرة أنهـا قـد تكـون وحيـدة وتعيسـة بسببه) ابتسمت له. فتح زجاجة، ملأ كأسين، وجلس:

– اقتربي مني يا بول. أين ترغبين أن نتناول العشاء.

جلسـت قربـه. هـو أيضـاً كـان يبـدو متعبـاً. أمسـك يدهـا وضغطها وقال:

– إنـني أعـوم في بحـر مـن التعقيـدات. الأعمـال سـخيفة، والناس متوحشون وهشون بشكل لا يطاق. آه! كما تعلمـين، أود لو نعيش في الريف...

– كنت ستشتاق لـ (كي دوبيرسي)، ولمخازنك وشاحناتك، للياليك الطويلة في باريس..

ابتسم للعبارة الأخيرة، تمطى ثم ترك نفسه يسقط للـوراء فـوق الأريكة. لم تلتفت نحـوه. أخـذت تنظـر إلى يـده الـتي تركهـا فـوق يدها، إنها يد ضخمة منبسطة. كانت تعـرف كـل مـا فيـه، شـعره الكث المنتصب، والتعبير الدقيق لعينيه الزرقاوين الملتمعتـين قليـلاً، وتغضنات فمه. إنها تحفظه عن ظهر قلب. قال:

– بمناسبة الحديث عــن ليـال طيشـي، التقطتـني الشـرطة مساء أمس مثل صبي. لقد تعاركت مع رجـل تجـاوز الأربعـين.. في مخفر الشرطة.. أنت تفهمين..

– لماذا عاركته؟.

ss

- لست أذكر. لكنه كان سيئاً جداً.

هب واقفاً دفعة واحدة، وكأن ذكرى هذا الدليل الحسي قد أحيته فقال:

- أعرف أين سنذهب، إلى بيمونتيا. بعدها سنرقص. هذا إذا رغبت في اعتباري راقصاً.

قالت بول:

- أنت تتنزه ولا ترقص.

- ليس هذا رأي كل الناس.

قالت بول:

- إن كنت تتحدث عن البائسات اللاتي تفتنهن، فهذا أمر آخر.

شرعا بالضحك. كانت مغامرات روجيه الصغيرة موضوعاً ممتازاً للتندر فيما بينهما. استندت بول إلى الجدار لبرهة قبل أن تضع يدها على الدرابزين. لم تكن شجاعة لتقول....

* * *

انطلقا بالسيارة صامتين، أحست بالضجر فمدت يدها إلى الراديو وشغلته. ومن خلال ضوء لوحة القيادة لمحت يدها، طويلة ونظيفة، تنتشر الأوردة فوقها، وتأخذ في التسلق مقتحمة ظهر الأصابع، وتتشابك في رسم مشوش. "كصورة حياتي" قالت لنفسها، ثم فكرت في الحال بأن هذه الصورة زائفة. فهي تمتهن حرفة تروق لها، وماض بلا حسرات، وأصدقاء طيبون، ومودة دائمة. التفتت نحو روجيه:

ss

– كم مرة قمت بهذه الحركة : تشغيل الراديو وأنا ذاهبة لتناول العشاء معك؟.

– لا أعرف.

رمقها بنظرة مواربة. فرغم الزمن ويقينه من حبها له، فقد ظلّ حساساً على نحو مدهش لطباعها، ومترقباً دوماً كما في المرات الأولى... كظمت عبارتها : (ألا تتذكر؟) وقررت الانتباه جيداً لحالتها العاطفية هذا المساء.

– ألا يبدو لك هذا أمراً مبتذلاً؟.

– لا. أنا من يساورني إحساس بأنني مبتذلة بعض الشيء أحياناً.

مدّ يده نحوها، فتناولتها بكلتي يديها. كان يقود السيارة بسرعة، والطرق المألوفة تنزلق. وتتلألأ باريس تحت مطر خريفي. شرع يضحك وهو يقول :

– أتساءل لماذا أقود السيارة بسرعة كبيرة؟ أخشى أنه تَظَاهُرٌ بالشباب.

لم تجبه. إذ منذ تعرفت إليه كان يتظاهر بالشباب. لقد كان "الشاب" ومنذ فترة وجيزة فقط اعترف لها بذلك، وهذا الاعتراف ذاته أفزعها.

بات يستبد بها خوف متزايد من دور المرأة الثقة، الذي تركت نفسها تنزلق فيه، لفرط تفهمها، وفرط حنانه. إنه حياتها، وهو ينسى ذلك، وهي تساعده على نسيانه بحياء جدير بالاحترام تماماً.

ss

تعشيا بهدوء، وهما يتحدثان عن الهموم العامة لكل مشاريع النقل المشابهة لمشروع روجيه، ثم روت له طرفتين أو ثلاث عن المحال التجارية التي تعمل على زخرفتها. ثمة زبونة من "فات" أبت إلا أن تعهد لها بشقتها. وهي امرأة أمريكية. غنية بما يكفي. قال روجيه:

– فان دن بيش؟ هذا يذكرني بأمر ما. آه! أجل...

عقدت حاجبيها. كان يبدو فرحاً إذ يهبها نوعاً من الذكريات.

– لقد عرفتها فيما مضى. قبل الحرب، على ما أعتقد. كانت ما تزال تقيم في فلورنس.

– ومنذ ذلك، وهي تتزوج، وتُطِلق، وهلم جرا.

قال بشكل حالم:

– أجل، أجل، كانت تدعى.. أوه..

كان يستثيرها. فجأة اعترتها رغبة في أن تغرز شوكتها في كفه. ومع هذا فقد قالت:

– لا أعبأ باسمها. أعتقد أنها تملك ثروة لا بأس بها، ويعوزها الذوق. وهذا بالضبط ما احتاجه في حياتي.

– كم هو عمرها الآن؟.

قالت ببرود:

– في الستينيات.

ولدى رؤيتها تعابير وجه روجيه، انفجرت ضاحكة. انحنى فوق الطاولة وحصرها:

- أنت قطيعة حقاً. تفعلين ما بوسعك لإحباطي. رغم ذلك أحبك، مع أنني لست ملزماً.

كان يروق له أن يخدع الضحايا. تنهدت وقالت:

- أياً يكن، سأذهب إليها غداً. في جادة كليبه.غدت حاجتي للنقود أمراً مقلقاً. وحاجتك أيضاً.

قالت الجملة بحيوية، وبينما هو يرفع يده قال:

- فلنتكلم في موضوع آخر. هيا نرقص قليلاً.

جلسا في الحانة الليلية، إلى طاولة صغيرة نائية عن حلبة الرقص، وتأملا توافد الوجوه بصمت. كانت يده فوق يدها، فأحست بطمأنينة غامرة، وألفة تامة معه. لن يسعها أبداً أن تحاول التعرف إلى شخص آخر. وهي تستمد من هذه القناعة مسرّة حزينة. رقصا. ضمها إليه بشدة، عابراً بها حلبة الرقص من طرفها بلا انسجام، وهو معجب بنفسه. كانت في غاية السرور.

قفلا عائدين بالسيارة. بعد ذلك ترجل واحتضنها بذراعيه أمام مدخل المنزل.

- سأدعك تنامين. إلى اللقاء غداً، حبيبتي.

عانقها برفق ومضى. لوحت بيدها مودعة. بات يدعها للنوم وحيدة في غالب الأحيان. كانت شقتها موحشة فرتبت أمتعتها بدقة مفرطة قبل أن تجلس على سريرها، والدموع في عينيها. إنها وحيدة هذه الليلة أيضاً، وبدت لها حياتها المقبلة

ss

كسلسلة طويلة من ليالي الوحدة الموحشة، وسط أغطية مدعوكة دوماً، وسكينة كئيبة، كسكينة مرض مديد.

في السرير، مدت ذراعها غريزياً كأنما توجد خاصرة دافئة تلمسها، وأخذت تتنفس برفق كأنما تحرص على نوم أحدهم، رجل أو طفل، لا يهم، المهم شخص يحتاج لها ولدفئها في نومه ويقظته. بيدَ أنه لا أحد يحتاج إليها حقاً. ربما روجيه، بصورة غير منتظمة... ولكن ليس بشكل حقيقي. ليس بتلك الطريقة، ولا بتلك العاطفة، إنما بعلاقة جسدية عانت منها أحياناً. أخذت تجتر وحدتها بمرارة وهدوء.

* * *

ترك روجيه سيارته أمام منزله وتمشى على قدميه لفترة طويلة من الزمن. كان يتنفس بعمق، ويوسع في خطواته شيئاً فشيئاً. شعر بالراحة. كان يشعر بالراحة كلما رأى بول، لأنه لم يحب سواها. هذا المساء فقط، وفيما هو يغادرها أحس بحزنها، ولم يدرِ ماذا يقول. كانت تلتمس منه أمراً ما على نحو غامض، وهو يعرفه جيداً، أمر ليس بمقدوره منحه لها، وما استطاع قط منحه لأحد، كان عليه، بلا ريب، أن يبقى معها ويضاجعها، إذ لم تزل هذه هي الطريقة المثلى لطمأنة امرأة. لكنه رغب في المشي، والتجوال في الشوارع، والتسكع. رغب في سماع وقع خطواته فوق الطريق المعبدة، وتأمُّل هذه المدينة التي يعرفها حق المعرفة، وربما في اقتناص فرصة ليلية فيها. انطلق صوب الأضواء في نهاية الرصيف.

ss

2

استيقظت متعبة ومتأخرة، وغادرت على عجل. كان عليها أن تمر بتلك الأمريكية قبل أن تذهب إلى مكتبها. في الساعة العاشرة، دخلت بهواً شبه خال، في جادة كليبة، و لأن صاحبة المنزل لم تزل نائمة. فقد سوّت زينتها بهدوء أمام المرآة. وفيها رأت قدوم سيمون. كان يرتدي روباً فضفاضاً، أشعث الشعر، ووسيماً بشكلٍ ملفت للانتباه. (ليس من النوع الذي يعجبني). واصلت تفكيرها دون أن تلتفت نحوه ولكنها ابتسمت في سرها للحظة من الزمن. كان ناحلاً بإفراطٍ، شديد الإسمرار، ذا عينين صافيتين، و نبيهاً أكثر مما ينبغي. لم يشاهدها في البداية، وتوجه صوب النافذة مترنماً. سعلت فاستدار نحوها، بهيئة من ضُبط متلبساً. فكرت للحظة بأنه لا بد أن يكون النزوة الأخيرة للسيدة فان دن بيش.

قال:

ss

– أستميحك عذراً. لم أرك. أنا سيمون فان دن بيش.

– طلبت والدتك مني المجيء هذا الصباح للعمل بشقتها. أخشى أنني أيقظت الجميع.

قال بحزن:

– على كل حال، لابد من الاستيقاظ دوماً، عاجلاً أم آجلاً.

فكرت بشيء من الفتور(لابد أن هذا أسلوب فتى غر ميال للنواح). كان يبدو خجلاً، خالج بول شعور بالتعاطف الغامض نحوه. وعلى كل حال، لم يكن يظهر عليه بتاتاً أنه واعٍ لهيئته، و هو أمر مفاجئ.

– اعتقد أنها ما تزال تمطر.

أخذت تضحك. راحت تتخيل تعابير روجية فيما لو شاهدها تجلس بشخصية امرأة أعمال، ترهب فتىً غراً وسيماً، يرتدي ثياب النوم في الساعة العاشرة صباحاً. عادت من شرودها وقالت بمرح:

– أجل، أجل. إنها تمطر.

رفع بصره نحوها وقال:

– و ماذا تريدين أن أقول لك؟ أنا لا أعرفك. لو كنت أعرفك من قبل، لقلت لك إنني سعيد جداً بلقائك.

نظرت إليه مندهشةً.

– لماذا؟.

ss

- هكذا.

أشاح بوجهه عنها. رأت أنه يزداد غرابةً. وبعد صمت قصير قالت:

- هذه الشقة بحاجة ماسة إلى بعض الأثاث. أين تجلسون حين يزيد عددكم على ثلاثة أشخاص؟.

- لا أعرف. نادراً ما أكون هنا. أعمل طيلة النهار، وحين أعود، أكون مرهقاً... حتى أنني أنام من فوري.

بالتأكيد، تبددت آراء بول حول هذا الصبي. فهو لا يفاخر بسيمائه، و يعمل طيلة النهار. كادت أن تسأله (وماذا تعمل؟) إلا أنها أمسكت عن ذلك. إن فضولها فطري إلى حد ما.

تابع سيمون قائلاً:

- إنني محامٍ متمرن. هذا يعني الكثير من العمل، و النوم في منتصف الليل، و الاستيقاظ مع الفجر..

- إنها العاشرة الآن.

علّقت بول مصححة، قال بصوت فاتر:

- أعدموا أهم زبون لدي بالمقصلة هذا الصباح.

انتفضت بينما أبقى بصره مطرقاً. وقالت:

- يا إلهي.. ومات؟.

انفجرا ضاحكين معًا. نهض وأشعل لفافة تبغ من الموقد. ثم قال:

ss

– في الحقيقة، لا، أنا لا أعمل كثيراً، بل أقل مما ينبغـي. وأنـت بالمقـابل، تخدعيـني، فقـد نهضـتِ في السـاعة العاشـرة صباحاً، متأهبة لفرش هذا البهو الكريه.

مشى في أرجاء البهو طولاً وعرضاً، بهيئة مستثارة جداً.

قالت بول:

– اهدأ سيمون، اهدأ.

كانت تشعر بالبهجة والانشراح. وساورتها خشية أيضاً مـن قدوم والدة سيمون.

قال سيمون:

– سأرتدي ملابسي. لن أتأخر أكثر من دقيقة، انتظريني.

* * *

أمضت ساعة مع السيدة فان دن بيش، ذات المزاج المتكـدر بوضوح، والتائه قليلاً في الصبـاح، واتفقـت معهـا علـى مشـاريع معقدة. ثم هبطت الدرج مسرورة وهي ترسم خططاً مالية، ناسـية أمر سيمون تماماً. في الخـارج كـان المطـر لم يـزل يهطـل. رفعـت يدها لتوقف سيارة، فتوقفت أمامها سيارة صغيرة واطئة.

فتح سيمون الباب:

– هل يمكنني أن أوصلك؟ كنت متجهاً إلى المكتب.

من الواضح أنه كان ينتظر منذ ساعة، بيد أن هيئته المـاكرة أثارت شفقة بول. ركبت بمشـقة كبـيرة، بعـد أن انثنـت علـى نفسها مرتين، وابتسمت:

– أنا ذاهبة إلى جادة ماتينيون.

– هل رتبت الأمر مع أمي؟.

– على أحسن وجه.

سيكون بوسعك قريباً أن تريح عناءك فوق أرائك وثـيرة. ألا أؤخرك عن عملك كثيراً؟. الساعة تنـوف علـى الحاديـة عشـرة. سيتوفر لك متسع من الوقت لتعدم كل الناس بالمقصلة.

قال بتجهم:

– الوقت متوفر دوماً.

تابعت برقّة:

– لست أسخر منك. لكنني مبتهجة لأن همّ النقود سـيزول بفضل والدتك.

قال:

– اجعليها تدفع أولاً. فهي بخيلة جداً.

قالت بول:

– لا يتكلم المرء هكذا عن والديه.

– لست ابن الثانية عشرة عاماً!.

– كم؟.

– خمسة وعشرون، وأنت؟.

– تسعة وثلاثون.

أطلق تصفيرة خافتة غير مهذبة، حتى أن بول كادت تثـور غاضبة للحظة، ثم انفجرت ضاحكة.

ss

– لماذا تضحكين؟.

– من هذه التصفيرة المفعمة بالإعجاب.

– إنها مفعمة بالإعجاب أكثر مما تتصورين.

قال ذلك ثم نظر إليها بحنان بالغ حتى أنها شعرت بالضيق.

كانت ماسحات الزجاج تتحرك بإيقاع رتيب فوق الزجاج دون فائدة تذكر فتساءلت في سرِّها(كيف يتمكن من قيادة السيارة) وعلى الرغم من أن جوربها قد تمزق لدى ركوبها السيارة إلا أنها أخذت تشعر ببهجة مدهشة في هذه السيارة غير المريحة، بصحبة هذا الشاب الغريب عنها، والفاتن بشكل جلي، وهذا المطر الذي يتسرب من غطاء السيارة موسخاً معطفها النظيف.

فكرت بمشكلتها المالية المزمنة والمألوفة،وماذا سيتبقى لها بعد أن تدفع ما عليها من ضرائب، وترسل نفقة والدتها، وتسوي ديونها في المخزن؟. سيبقى لها... ليس لديها رغبة في الحساب. ثم فكرت بسيمون أيضاً وهو يقود السيارة بسرعة كبيرة. فكرت بروجية، وبالليلة التي أمضتها. دهمها الحزن، و...

– ألا ترغبين بتناول الغداء معي ذات يوم؟.

تكلم سيمون بسرعة من دون أن ينظر إليها. استبدت بها لحظة ذعر. فهي لا تعرفه، والموقف يقتضي أن تبذل جهدها في الحوار معه، أن تسأله عن نفسه، أن تغوص في حياة جديدة، ووجود جديد. أخذت، تساوم:

ss

- لا أستطيع في هذه الأيام. إنني مشغولة جداً.

قال:

- آه، حسناً.

لم يلح عليها. ألقت عليه نظرة، لقد خفف من سرعة السيارة، بل بدا أنه يقودها بحزن. أخذت لفافة تبغ فناولها ولاعته. إن له معصمي مراهق نحيلتين جداً، وتبرزان بشكل مضحك من سترة تويد سميكة.

فكرت في سرِّها: "لا يرتدي ثياب صائد للنساء من له هذا المُحيا". اعترتها للحظة رغبة في أن تهتم بأمره. لأنه بالضبط فتى من النوع الذي يستثير مشاعر الأمومة لدى امرأة في سنها.

قالت:

- هنا.

ترجل دون أن يتفوه بكلمة، وفتح لها الباب. بدا كئيباً وعنيداً.

قالت:

- أشكرك مرة ثانية.

- لا شيء يستحق الشكر.

مشت ثلاث خطوات صوب الباب ثم استدارت للخلف.

كان ينظر إليها ساكناً.

3

استغرق سيمون ربع ساعة ليجد مكاناً يركن فيه السيارة، وانتهى إلى وضعها على بعد خمسمائة متر من مكتب عمله. كان يعمل عند أحد أصدقاء والدته، و هو محامٍ مشهور، ومكروه تماماً، يتحمل سيمون حماقاته، لأسباب يخشى أن يدركها. في بعض الأحيان تستبد به الرغبة في إغاظته، بيد أن كسله يمنعه من ذلك. تعثر و هو يجتاز الرصيف، وشرع يعرج في الحال، بهيئة وديعة ومذعنة. أخذت النسوة يتلفتن إلى الوراء لدى عبوره، فشعر سيمون بأفكارهن تجلد ظهره (فتيّ جداً، وسيم جداً، و ذو عاهة، يا للأسف!) مع أنه لم يستمد من هيئته أية ثقة، بل عزاء وحسب: (ما كنت لأحتمل أبداً أن أكون قبيحاً) ومن هذه الفكرة استشف حياة رجل زاهد، وتارة رسام منبوذ، وتارة راع في البوادي. دخل المكتب و هو يعرج، فرمقته العجوز أليس بنظرة فيها مزيج من الشفقة والارتياب. كانت تعرف

ss

تسلياته المفضلة، وقد تتحملها بتسامح مفعم بالأسف. لو كان جدياً في مظهره وخياله، لأمكن له أن يكون محامياً مشهوراً. حياها بشكل مفخم وجلس إلى طاولته.

لماذا تعرج في مشيتك؟.

– لا أعرج بشكل جدي. من قتل من، في هذه الليلة؟ متى يتسنى لي الانشغال بجريمة كبيرة جهنمية؟.

– لقد سأل عنك ثلاث مرات هذا الصباح. فالساعة الآن هي الحادية عشرة و النصف.

سأل وهو يلقي نظرة إلى الباب:

– تعني الأستاذ الكبير؟. لقد استيقظت متأخراً. إلا أنني قابلت شخصية رائعة.

– امرأة؟.

– أجل. كما تعلمين، وجه جميل حنون جداً، شاحب قليلاً... إيماءاته هي إيماءات... متألم من أمر لا أعرفه...

– الأجدر بك أن تنظر إلى ملف غويو.

– بالطبع.

– أهي متزوجة؟.

استيقظ سيمون فجأة من أحلامه.

– لا أعرف... إلا أنها إذا كانت متزوجة، فهي غير راضية عن زواجها. كانت مهمومة بسبب النقود التي سوّت أمرها، وغدت مرحة تماماً بعد ذلك. أحب النسوة اللاتي تفرحهن النقود.

هزّت كتفيها:

- أنت تحبهن جميعاً إذن.

قال سيمون:

- تقريباً، ما عدا الفتيات.

أكبَّ على الملف. انفتح الباب وأطلَّ الأستاذ فلوري برأسه.

- سيد فان دن بيش... دقيقة.

تبادل سيمون نظرة مع السكرتيرة. نهض ثم دخل المكتب الإنكليزي الذي يمقته بسبب إتقانه.

- أتعرف كم الساعة الآن؟.

اندفع الأستاذ فلوري في امتداح الدقة و العمل، وختم نوبته بالثناء على صبره هو، وصبر السيدة فان دن بيش. كان سيمون ينظر عبر النافذة. تبدى له أنه يعيش مجدداً مشهداً قديماً، عاشه دوماً في هذا المكتب الإنكليزي، وسمع فيه هذه الكلمات دوماً، وشعر أن شيئاً ما يشد وثاقه، يخنقه ويقوده إلى حتفه. فكر على نحو مفاجىء: "ماذا فعلت طيلة خمس وعشرين سنة، سوى الانتقال من أستاذ إلى أستاذ، مؤنّباً دوماً، وإنه يجب عليَّ أن أكون...وأكون...وأكون..." إنها المرة الأولى التي يطرح فيها هذا السؤال بهذه القوة، فرفع صوته بشكل عفوي.

- ماذا فعلت؟.

- كيف؟ لكنك لم تفعل شيئاً، يا صديقي العزيز. و هذه هي المأساة: إنك لا تفعل شيئاً.

واصل سيمون كلامه :

– اعتقد أنني ما أحببت أحداً قط.

انفجر الأستاذ فلوري قائلاً :

– لا أسألك أن تقع في غرامي أو غرام العجوز أليس. أسألك العمل. إن لصبري حدوداً.

استطرد سيمون متأملاً :

– إن لكل شيء حدوداً.

شعر أنه في عزِّ الحلم، في غمرة المحال. راوده إحساس بأنه لم يذق طعم النوم منذ عشرة أيام، و بأنه يتضور جوعاً، ويموت عطشاً.

– أو تسخر مني؟.

قال سيمون :

– لا ، أرجو المعذرة، سأكون متيقظاً أكثر.

خرج متقهقراً، جلس إلى طاولته، محتضناً رأسه بين يديه، تحت نظرة السيدة أليس المندهشة. فكر "ولكن ماذا دهاني، ماذا دهاني؟" كان يحاول أن يتذكر: طفولته في إنكلترا، الجامعة، و غرامه، أجل، في الخامسة عشرة من عمره أُغرم بصديقة والدته، التي سلبته براءته بعد أسبوع،حياة سهلة، وأصدقاء مرحين، فتيات، طرقات مشمسة.... كل ذلك يتدفق إلى ذاكرته دون أن يستطيع التركيز على أمرٍ ما. ربما لم يكن يوجد شيء من هذا مطلقاً. إنه في الخامسة والعشرين من عمره.

ss

قالت السيدة أليس:

– لا تهتم. أنت تعرف جيداً أنه سيتغاضى عن هذا الأمر.

لم يجب. وأخذ يرسم خطوطاً مبهمة فوق ورقة النشاف.

واصلت السيدة أليس كلامها بقلق:

– فكر بصديقتك الصغيرة إذن، "ثم استدركت" أو بملف غويو بالأحرى.

قال سيمون:

– ليس لي صديقة صغيرة.

– وصديقة هذا الصباح. ماذا تدعى إذن؟.

– لا أعرف.

هذا صحيح، فهو لا يعرف حتى اسمها. ثمة في باريس شخص لا يعرف عنه شيئاً، وهذا أمر مدهش، ومفاجئ تماماً. شخص بوسعه أن يتخيله على هواه طيلة أيام.

* * *

كان روجيه مستلقياً على الأريكة في البهو، يدخن بهدوء وقد أنهكه التعب. لقد أمضى نهاره فوق رصيف الميناء يترقب عودة شاحناته فتبلل، وفوق ذلك اضطر للمغادرة على طريق "ليل" وقت الغداء، فتعرض لحادث كلفه أكثر من مائة ألف فرنك. كانت بول ترفع الصحون عن المائدة حين قال:

– ماذا عن هذه التيريزا؟.

– أية تيريزا؟.

ss

– السيدة فان دون بيش. الله يعلم لماذا اهتديت إلى اسمها هذا الصباح.

قالت بول:

– هذا أمر ملائم. أنا مهتمة بالأمر كله. ولم أخبرك لأن لديك الكثير من المتاعب..

– هل تحسبين أن خلاصك من متاعبك كان سيكدرني أكثر؟.

– لا. لقد فكرت ببساطة..

– أتحسبيني أنانياً كبيراً، يا بول؟.

اعتدل في جلسته على الأريكة، وحدق فيها بعينيه الزرقاوين غاضباً.

غدت مضطرة لتهدئته الآن، ولتوضح له أنه أفضل الرجال وهو أمر صحيح بمعنى ما، وأنه يجعلها سعيدة جداً. جلست بالقرب منه.

– لست أنانياً. أنت مشغول بأمورك. فمن الطبيعي أن تتكلم عنها..

– لا. أعني هل تجديني أنانياً بالمقارنة معك؟.

تبدى له أنه فكر بهذا طيلة النهار، وعلى الأرجح منذ تركها ذلك المساء أمام باب منزلها قلقة العينين. أصابتها الحيرة: فهو لم يطرح عليها هذا السؤال من قبل، وربما أزف الوقت للكلام معه حول ذلك. إلا أنها كانت تشعر بالبهجة، وبالثقة بنفسها، بينما هو يبدو متعباً.. فأحجمت.

- لا، يا روجيه. صحيح أنه توجد لحظات أشعر فيها أنني وحيدة قليلاً، وأقل شباباً، وعاجزة عن مجاراتك، إلا أنني سعيدة.

- أسعيدة أنت؟.

- أجل.

تمدد على الأريكة من جديد لقد قالت: "إنني سعيدة"، ولم يعد أمام السؤال الصغير المؤرق الذي طارده طيلة النهار سوى أن يتبدد، وهو لا ينشد سوى هذا.

- أنت تعلمين، كل هذه الأحداث المؤسفة التي تحصل لي هي.. أنت تعرفين قيمتها في النهاية.

قالت:

- أجل، أجل.

راحت تنظر إليه، وهو مغمض العينين، فشعرت به كائناً طفولياً، متمدداً على الأريكة، ضخماً، ثقيلاً، ويطرح عليها أسئلة صبيانية "هل أنت سعيدة؟".

مد يده إليها، فأمسكتها وجلست قربه. أبقى عينيه مغمضتين وقال:

- بول.. بول. بدونك، أنت تعرفين يا بول..

- أجل..

انحنت وقبلت خده. غطَّ في النوم. وشيئاً فشيئاً سحب يده من بين يدي بول. ثم رفعها ووضعها فوق قلبه، فتحت بول كتاباً.

بعد ساعة استيقظ مفعماً بالحيوية، نظر إلى ساعته وأعلن بأنه قد حان وقت الذهاب إلى الرقص والشراب لنسيان كل تلك الشاحنات اللعينة. كانت بول نعسانة بيد أن حجتها ليس بمقدروها أن تصمد أمام رغبة روجيه.

قادها إلى مكان جديد، قبو في جادة سان جيرمان، مزين بحديقة صغيرة، وغارق بالأخيلة، ويصدح فيه إيقاع أمريكي. قالت بول وهي تجلس:

- لا أستطيع الخروج في كل الأمسيات، سأبلغ عامي المائة غداً. حين نهضت هذا الصباح...

عندئذ تذكرت سيمون. كانت قد نسيته تماماً. التفتت نحو روجيه.

- تصور أنه في هذا الصباح...

إلا أنها سكتت. فقد انتصب سيمون أمامها وقال:

- طاب نهارك.

قالت بول:

- السيد فورتيه. السيد فان دن بيش.

قال سيمون:

- كنت أبحث عنك، وأنه لفأل حسن أن أجدك.

ودونما انتظار، تهالك على أحد المقاعد. نهض روجيه مستاء. استأنف سيمون كلامه:

- بحثت عنك في كل مكان. وانتهى بي الأمر إلى التساؤل أن كنت قد رأيتك في المنام.

ss

كانت عيناه تلتمعان. وضع يده على ذراع بول التي أخذها الذهول. تضايق روجيه وقال:

– ربما لديك طاولة أخرى؟.

سأل سيمون بول:

– أأنت متزوجة؟ لا أريد أن أصدق هذا.

قال روجيه بصوت مرتفع:

– إنه يزعجني. سأقوده بعيداً من هنا.

نظر سيمون إليه، ثم اتكأ بمرفقيه إلى الطاولة ورأسه بين يديه.

– أنت محق يا سيد، استميحك العذر. اعتقد أنني ثمل قليلاً. لكنني اكتشفت هذا الصباح أنني لم أفعل شيئاً البتة طوال حياتي. لا شيء.

– إذن، أفعل شيئاً مفيداً، وانصرف من هنا.

قالت بول برفق:

– دعه، أنه تعس. الكل يفرط في الشراب قليلاً يوماً ما. إنه ابن صد... أوه تيريزا.

قال روجيه مذهولاً:

– الابن؟.. هذا يزيد الطين بلة...

انحنى سيمون نحو الأمام، وقد أراح رأسه فوق ذراعيه. فقال روجيه:

– استيقظ. سنحتسي كأساً معاً. ولسوف تروي لنا أحزانك. سأحضر الأقداح فالانتظار طويل هنا!.

ابتدأت بول تسليتها. ففكرة الحوار بين روجيه وبين هذا الشاب الغريب الأطوار تسليها سلفاً. رفع سيمون رأسه مجدداً، فرأى روجيه ينتقل بصعوبة بين الطاولات. فقال:

– ذلك رجل صح؟ رجل حقيقي؟ أخشى هذه النماذج النشطة، الرجولية، بآرائها السليمة، أنا...

قالت بول بجفاف:

– ليس الناس بمثل هذه البساطة أبداً.

– أتحبينه؟.

– هذا لا يعنيك.

كانت خصلة من شعره تنسدل فوق عينيه. وأضواء الشموع تبرز معالم وجهه. كان وسيماً بهياً. وعلى الطاولة المجاورة ثمة امرأتان تتأملانه بغبطة.

قال سيمون:

– أسألك المعذرة. اسمعي هذا مضحك. سأقضي حياتي في الاعتذار بدءاً من هذا الصباح كما تعرفين. أظن أنني شخص تافه.

عاد روجيه بثلاثة كؤوس، ودمدم بأن كل الناس سيحدث لهم هذا ذات يوم. غبَّ سيمون قدحه بجرعة واحدة، والتزم بصمت حذر. كان يجلس معهما دون أن يحرك ساكناً. شاهدهما يرقصان، وسمعهما يتكلمان على سجيتهما، حتى أنهما نسياه رويداً رويداً. ولكن بين لحظة وأخرى كانت بول تنظر إليه فتراه إلى جوارهما كطفل وديع فلا تستطيع أن تتمالك نفسها من الضحك.

SS

عندما نهضا مغادرين، نهض بتهذيب ثم انهار. قررا إعادته إلى منزله، وفي سيارة روجيه غطّ في النوم، ورأسه يهتز على كتف بول. كان شعره ناعماً، ويتنفس بلطف. انتهى بها الأمر إلى وضع يدها على جبينه كيلا يرتطم بالزجاج، فأمسى رأسه ثقيلاً على يدها، مستسلماً تماماً. ترجل روجيه من السيارة في جادة كليبه، ودار حولها، وفتح بابها. همست بول:

- انتبه.

فاجأه تعبيرها، لكنه لم يتفوه بكلمة، وأخرج سيمون من السيارة.

في ذلك المساء صعد إلى شقة بول بعد أن أوصلها. وأبقاها بعد ذلك مضمومة إلى صدره لزمن طويل حارماً إياها من النوم.

ss

4

عند ظهيرة اليوم التالي، وصل سيمون قرب مكتب بول، حين كانت تحاول إقناع الخياط، وهي جاثية في الواجهة الزجاجية، بأن نصفية تمثال من الجص يحمل قبعة ليس ابتكاراً أصيلاً. كان يختلس النظر منذ خمس دقائق، متوارياً خلف كشك للبيع، بقلب خافق، لم يعد يعرف أيخفق قلبه لرؤيتها، أم لاختبائه. لقد أحب الاختباء دوماً، و حدث أيضاً أن استخدم يسراه بألف من الحركات الالتوائية المشوهة، كأن تكون يده اليمنى متشنجة على مسدس، أو مصابة بالأكزيما، وهذا أخاف الناس في المخازن. مؤكد أنه يتبع جلسات في التحليل النفسي، أو هذا ما تدعيه أمه على الأقل. وفيما هو يشاهد بول جاثية في الواجهة الزجاجية، ودَّ لو لم يصدفها قط، و لم يرها هكذا، عبر الزجاج. وأن لا يواجه رفضها المرجح الذي يوشك أن يتعرض له للمرة الثانية. ماذا كان بوسعه أن يقول ليلة أمس؟ لقد تصرف

مثل أحمق صغير، تكلم وقد أثمله الشراب عن أحواله النفسية، بمنتهى البذاءة.. لاذ خلف الكشك، وقد همَّ بالمغادرة، ومن ثم ألقى عليها نظرة أخيرة. فجأة، اجتاحته رغبة بعبور الشارع، وانتزاع القبعة منها، تلك القبعة الكريهة بدبابيسها الطويلة، وانتزاعها من عملها في الوقت نفسه، ومن حياتها التي تفرض عليها النهوض مع الفجر لتأتي وتجثو على مرأى من المارة في واجهة زجاجية.

كان العابرون يتوقفون وينظرون إليها بفضول، ولا ريب أن بعضهم يشتهيها وهي جاثية على تلك الحال، وذراعاها ممدودان نحو تمثال الجص النصفي. شعر بالغيرة عليها، وعبر الطريق.

تصور أنها، وقد أرهقتها كل تلك النظرات، وأتعبتها، ستنظر إليه كما تنظر إلى تغيُّرٍ مُحبب، بيد أنها اكتفت بتوجيه ابتسامة صغيرة وجافة إليه.

– أتريد قبعة لأحدهم؟.

تلعثم، لكن الخياط انبرى يوبخه، إنما بدلال وغنج.

– سيدي العزيز، أنت تنتظر بول، هذا حسن، لكن اجلس هناك، ودعنا ننهي عملنا.

قالت بول وهي تغير وضع الشمعدان:

– إنه لا ينتظرني.

قال سيمون:

ss

– من الأفضل أن تضعوه على اليسار، وقليلاً نحو الخلف. هذا أكثر إيحاء.

نظرت إليه غاضبة للحظة، فابتسم لها. لقد غيّر دوره الآن. أصبح الشاب الباحث عن سيدته في مكان أنيق. الشاب الرفيع الذوق. نال اقتراحه إعجاب الخياط اللوطي، الذي قال:

– أنت محق، هذا أكثر إيحاء.

قالت بول ببرود:

– مم؟.

نظرا إليها.

– من لا شيء مطلقاً.

شرع يضحك لوحده، مطلقاً ضحكة مرحة. حتى أن بول أشاحت بوجهها عنه كي لا تشاركه فيها. تنحى الخياط المهان. وفيما هي تبتعد قليلاً عن الزجاج، لترى بشكل أفضل، صدمت كتف سيمون الذي اقترب منها، وأمسكها من مرفقها فوق المنصة وقال لها بصوت حالم:

– انظري، إنه يوم مشمس.

كانت الشمس تنفذ إليهما، عبر الزجاج المبتل بالماء، بدفئها المفاجئ، المفعم بالحسرة التي يمنحها الخريف. كانت بول مغمورة بهذا الضياء. فقالت:

– أجل، إنه يوم مشمس.

ss

ظلا لبرهة ساكنين، وهي لم تزل على المنصة، أعلى منه، مولية ظهرها له، ومستندة إليه مع ذلك، تحررت منه وقالت:

– كان ينبغي عليك أن تذهب للنوم.

– إنني جائع.

– إلى الغداء، إذن.

– ألا ترغبين في المجيء معي؟.

حارت في أمرها. كان روجيه قد خابرها بأنه سيكون مشغولاً بلا شك. ففكرت بتناول شطيرة من الحانة المقابلة، والتسوق قليلاً. لكن العودة المفاجئة للشمس جعلت من بلاط المقاهي، وممرات المحال الكبيرة أمراً مقيتاً. كانت تتوق للعشب، مع أنه أخذ بالاصفرار في هذا الفصل. قالت:

– أتوق للعشب.

– فلننطلق. لدي سيارتي القديمة، والريف قريب..

أومأت بالرفض. ربما يكون الريف مضجراً بصحبة هذا الشاب المجهول.. ساعتان وجهاً لوجه..حَدَسَ بما كانت تفكر، فقال مُطمئِناً:

– .. أو غابة بولونيا. وإذا سئمت، بوسعك استدعاء سيارة عبر الهاتف.

– تفكر بكل شيء!.

– لا بد من القول إنني كنت خجلاً جداً لدى استيقاظي، فجئت لاعتذر.

ss

قالت بلطف:

– هذه الأمور تحدث مع كل الناس.

ارتدت معطفها، فهي تتأنق في ملبسها. فتح لها سيمون باب السيارة وجلست دون أن تتذكر متى قالت "نعم" لهذا الغداء المضحك. شدت جوربها وهي تدخل السيارة، وأطلقت تنهيدة قصيرة غاضبة، ثم قالت:

– اعتقد أن صديقاتك الصغيرات يرتدين السراويل.

– ليس لي صديقات بعد.

– لا صديقات لك؟.

– أجل.

– وكيف حدث هذا؟.

– لا أدري.

كانت ترغب في السخرية منه. سَرّها هذا المزيج من الحياء والتهور، من الدعابة والرزانة المثيرة للسخرية أحياناً. لقد قال: "لا ادري."بصوت هامس تقريباً، وبهيئة غامضة. هزت رأسها.

– حاول أن تتذكر متى بدأ زوال المحبة الشامل هذا؟.

– السبب هو أنا على الأخص، كما تعلمين. كنت بصحبة فتاة لطيفة، لكنها رومانسية كثيراً. كانت تمثل صورة الشباب في نظر الناس الذين بلغوا الأربعين.

أوجعتها الطعنة في قرارة نفسها:

– أية صورة عن الشباب يصنعها الناس في الأربعين من عمرهم؟.

– آه، حسن.. كانت فتاة عبوس، وتقود سيارتها بمنتهى السرعة، وهي تصرّ على أسنانها، وتدخن الغلواز عند استيقاظها.. وكانت تقول لي بأن الحب ليس إلا تماس بشرتين.

أخذت بول بالضحك:

– وبعد ذلك؟.

– حين رحلت عنها، بكت مع ذلك. (ثم أضاف بحيوية) أنا لا أتفاخر بهذا، إنما أخاف منه.

كانت الغابة تفوح برائحة العشب الندي، والخشب الذي يتعفن ببطء، والدروب الخريفية. توقف أمام مطعم صغير، دار بسرعة حول السيارة ليفتح بابها. بذلت بول جهداً عضلياً كبيراً لتترجل بلطف وأناقة. شعرت بأنها في خضم المغامرة.

طلب سيمون في الحال "كوكتيل" فرمقته بول بنظرة صارمة.

– بعد ليلتك الماضية، عليك أن تشرب الماء.

– أشعر بأني على ما يرام. ثم أنه تعوزني الشجاعة. سيتعين علي أن أتدبر أمري لئلا تسأمي كثيراً، لهذا استجمع قواي.

كان المطعم خالياً تقريباً، والنادل عابس الوجه. صمت سيمون، واستمر في صمته بعد أن أوصى على طلباتهما. ومع ذلك فإن بول لم يخطر لها السأم على بال. شعرت أن هذا الصمت إرادي، وأن سيمون أعد مخططاً للحوار في هذا الغداء. لا بد أنه مترع دوماً بالأفكار الماكرة، مثل هر. تذكرت جملته(هذا أكثر إيحاء بكثير).

تظارف فجأة، مقلداً الخياط، فانفجرت بول ضاحكة وقد فاجأها ذلك:

– هل تقلد دوماً بالبراعة نفسها؟.

– بين بين. لكن لسوء الحظ ليس لدينا الكثير من المعارف المشتركين. وإذا قلدت أمي ستقولين إنني قليل التهذيب. ومع ذلك، ألا تعتقدين أن ثوب الساتان، هناك إلى اليمين قليلاً يشيع الدفء المفرح؟.

– أنت قليل التهذيب، لكنك محق.

– أما بالنسبة لصديقك البارحة، لم أتملاه جيداً. زد على ذلك لا بد أنه عصي علي التقليد.

مرت لحظة صمت، ابتسمت فيها بول، ثم قالت:

– إنه كذلك.

– أما أنا، فلست إلا نسخة باهتة من عشرات الشبان المدللين بإفراط، والمندسين في المهن الحرة بفضل آبائهم، ويشتغلون للشغل فقط. أنت تخسرين بالمبادلة، أعني، من أجل الغداء.

عدوانية صوته أيقظت بول:

– لولا أن روجيه مشغول لما كنت هنا.

قال سيمون بنبرة حزينة حيرت بول، وأدهشتها:

– أعرف هذا جيداً.

تكلما بقية فترة الغداء عن مهنهما المحترمة. شَبّه سيمون القضية كلها بجريمة عاطفية. وقف فجأة في غمرة دفاعه وأشار بإصبعه إلى بول التي غرقت في الضحك:

- وأنتِ اتهمكِ بعدم القيام بواجبك كإنسان. باسم هذا الميت اتهمك بأنك تركت الحب يموت بتجاهلك لواجبك في أن تكوني سعيدة. اتهمك بالعيش على الأعذار، وبالتحايل والاستسلام. يجب أن يُحكم عليك بالموت، وسيحكم عليك بالوحدة.

توقف عن الكلام، وعبّ كأسه دفعة واحدة، ولم تعترض بول، وقالت باسمة:

- إنه لحكم فظيع.

قال:

- إنه الأسوأ، ولا أرى ما هو أسوأ منه، ولا ما هو أكثر منه حتمية. لا شيء في العالم يخيفني كالوحدة، مثلي مثل كل الناس، بيد أن أحداً لا يعترف بذلك. أما أنا فتعتريني الرغبة في أن أعوي أحيانا. أنا خائف، أنا خائف، أحبوني.

تذكرت للحظة شق الجدار الموجود في حجرتها مقابل سريرها. مع الستائر المسدلة، واللوحة العتيقة، وخزانة الثياب الصغيرة على اليسار. هذا ما تشاهده كل يوم: صباح مساء. وهذا ما ستشاهده على الأرجح في السنوات العشر القادمة. التي ستكون فيها أكثر وحدة مما هي عليه اليوم. وروجيه، ماذا يفعل؟ ليس له الحق، وليس بوسع أحد أن يحكم عليها بالشيخوخة هكذا. لا أحد، حتى ولا هي نفسها.. قالت وكأنما رغماً عنها:

- وأنا كذلك.

قال سيمون برقة:

- لا بد أنني أبدو لك أكثر سخافة ونواحاً من مساء أمس. أو ربما تحسبين أن هذا هزل شاب يستدر به شفقتك؟.

كان يجلس قبالتها، بعينين صافيتين، يشوبهما اضطراب شفيف، ووجه من الملاسة والصفاء كاد أن يجعلها تضع يدها عليه.

- لا.. لا.. كنت أظن أنك ما زلت صغيراً على هذا. وأنك محبوب جداً على نحو محبب.

- لا بد أنهما الأمران معاً. تعالي نتمشى قليلاً في الخارج، فالطقس جميل الآن.

خرجا معاً، تأبط ذراعها، ومشيا قليلاً صامتين. تغلغل الخريف في قلب بول بعذوبة فائقة. كانت الأوراق الندية، الصهباء، الموطوءة بالأقدام، الملتصق بعضها مع بعض، تمتزج ببطء مع الأرض. شعرت بنوع من الحنان حيال هذا الشبح الصامت الذي يتأبط ذراعها. لقد غدا هذا المجهول رفيقاً لها في غضون دقائق، شخصاً تمشي معه في ممر خال، في نهاية السنة. لطالما شعرت بالحنان لرفاقها، العابرين منهم، أو الدائمين. وبنوع من العرفان بالجميل لمن هم أكبر منها، المختلفين جداً، والقريبين جداً في آنٍ معاً. تذكرت وجه مارك، زوجها الذي هجرها في غمرة العيش الرغد، ووجه رجل آخر أحبها بشغف، وأخيراً وجه روجيه، الوجه الوحيد الذي بقي في ذاكرتها مفعماً بالحيوية، متغير التعابير والملامح. ثلاثة رفاق في حياة امرأة، ثلاثة رفاق طيبين. أليس هذا أمراً جسيماً؟.

ss

– هل أنت حزينة؟.

التفتت نحوه، وابتسمت دون أن تجيب. تابعا سيرهما. فقال سيمون بصوت مخنوق:

– أود لو.. أود لو أني لم أعرفك. لكنني أود أن أصدق بأنك سعيدة. إنني... آه... إنني معجب بك.

لم تكن تصغي إليه. لقد تأخر الوقت. ربما اتصل بها روجيه لتناول القهوة معها. إنها مشتاقة له. لقد تحدث عن السفر يوم السبت، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في الريف. أيسعها الانتهاء من عملها قبل ذلك؟ وهل تراه ما زال راغباً بذلك؟ أم كان هذا واحداً من الوعود التي ينتزعها الحب والليل، حين – هي تعرف ذلك – لا يعود قادراً على النظر إلى الحياة من دونها، وحين يبدو له حبهما بديهية مرهقة إلى حد لا يعود قابلاً للنقاش. ولكنه ما إن يعبر الباب، وما إن يتنسم الرائحة النفاذة لاستقلاله فوق الرصيف، حتى تفقده من جديد. تكلمت قليلاً أثناء المسير، فشكرت سيمون على الغداء، وأعلنت إنها ستغتبط إن خابرها من وقت لآخر. نظر إليها سيمون دون حركة وهي تمضي. شعر بأنه مرهق جداً، وأرعن جداً.

ss

5

كانت مفاجأة لطيفة حقاً. استدار روجيه نحو طاولة السرير، وبحث عن لفافة تبغ. ندت عن الشابة التي بقربه ضحكة صغيرة.

– يدخن الرجال دوماً، على كل حال...

لم تكن هذه فكرة أصيلة كثيراً! قدَّم لها روجيه علبة تبغه فرفضت بحركة من رأسها.

– ميزي، أيمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟ ماذا دهاك هذا المساء؟.منذ شهرين نعرف بعضنا بعضاً، وأنت لا تهجرين السيد شيريل....

– السيد شيريل مفيد لي في مهنتي. كانت بي رغبة لأن أتسلى قليلاً، أتفهم؟.

أدرك أنها تنتمي لصنف من النساء يرفع الكلفة تلقائياً، حالما يتمدد. شرع بالضحك، وقال:

ss

- و لماذا أنا؟ كان يوجد شبان ظرفاء في حفلة الكوكتيل؟.

- كما تعلم، الشبان، هذا يتكلم، وذاك يتكلم. زد على ذلك أنك تبدو راغباً بهذا، على الأقل. وأقسم لك، أن هذا بات نادراً. و النساء يعانين منه. لا تقل لي أنك لست معتاداً على الغزوات...

قال لها ضاحكاً:

- ليس بهذه السرعة.

كانت رائعة الجمال. و مؤكد أن رأسها الضيق مترع بالآراء السخيفة عن الحياة، وعن الرجال والنساء. ولو أنه ألح عليها قليلاً، لفسَّرت له الكون. وكان سيحب ذلك. وكما في كل مرة، شعر بنفسه نائياً ومشفقاً، ومرتاعاً من فكرة أن هذه الأجساد الجميلة، المختلفة جداً، والتي يحب اكتشافها كثيراً، تتجول في الشوارع وفي الحياة، تقتادها رؤوس صغيرة مترددة وبليدة. داعب شعرها، فقالت:

- أنت، لا بد أنك حنون. الخشنون الضخام مثلك، هم حنونون دوماً.

- بالتأكيد.

قال ذلك بشرود. ولكنها واصلت كلامها:

- لست أرغب بهجرك. لو تعرف ما يضجره، شيريل...

- لن أعرفه أبداً.

- ما رأيك لو نغادر ليومين، يا روجيه؟ السبت والأحد، ألا ترغب ذلك؟ سنمكث دون حراك، في غرفة كبيرة في الريف.

نظر إليها. كانت متكئة على مرفقيها. رأى الوريد ينبض في عنقها. كانت تنظر إليه بالطريقة ذاتها التي نظرت إليه خلال حفلة الكوكتيل الشهيرة. فابتسم لها.

- قل نعم. وفي الحال، تسمع..

ردد وهو يجذبها نحوه :

- في الحال؟.

عضته في كتفه، وهي تهمهم. وفكر بشكل غامض أنه حتى الحب يمكن أن يمارس ببلاهة.



قالت بول:

- يا للأسف. أخيراً، اعملْ بشكل جيد، ولا تقد سيارتك بسرعة كبيرة، قبلاتي لك.

أغلقت سماعة الهاتف. لم تعد توجد عطلة نهاية الأسبوع. إذ يترتب على روجيه أن يذهب إلى " ليل" هذا السبت، وقد علل ذلك، بوجود أعمال مع شريكه هناك. ربما يكون ذلك صحيحاً. وهي تفترض دوماً بأن هذا صحيح. خطر لها فجأة الفندق الريفي الذي يرتادانه معاً في غالب الأحيان، والأضواء المتوهجة في كل مكان، والحجرة العابقة برائحة مبيد حشري، تخيلت ما كان يمكن أن يحدث في هذين اليومين، النزهات مع روجيه، الحوارات مع روجيه، المساء، واستيقاظهما الواحد بقرب الآخر، وتمضي كل الوقت قبالته، دافئة ناعمة مثل شاطئ. التفتت نحو الهاتف. كان بوسعها أن تتناول الغداء مع صديقة، بوسعها الذهاب مساء للعب

البريدج عند.. لم تكن بها رغبة في شيء. كانت خائفة من البقاء وحيدة طيلة يومين. كانت تمقت عطل المرأة الوحيدة: قراءة الكتب في السرير، النهوض المتأخر إلى أقصى حد ممكن، سينما مزدحمة، وربما حفلة كوكتيل مع أحدهم، أو تناول العشاء، وأخيراً، عند العودة، هذا السرير الشاحب، وهذا الانطباع بأنها لم تحيا لحظة واحدة منذ الصباح. كان روجيه قد قال إنه سيتصل بها في اليوم التالي، كان صوته حنوناً. ستنتظر مخابرته قبل خروجها. على كل حال، عليها القيام بمجموعة من الترتيبات والمشاغل النمطية التي طالما نصحتها بها والدتها، وبتلك الأمور الصغيرة الكثيرة التي تحفل بها حياة المرأة ولا تستسيغها على نحو مبهم. وكأن الزمن حيوان رخو ينبغي ضغطه. لكنها باتت تنتهي تقريباً إلى الأسف على غياب هذا الميل لديها. ربما تحين بالفعل لحظة تكف فيها عن مهاجمة حياتها، بل تدافع عنها كصديقة قديمة غير كتومة. هل أزفت هذه اللحظة الآن؟... وتراءى لها بأنها سمعت تنهيدة عميقة تنطلق خلفها.

في ذلك السبت نفسه، في الساعة الثانية، عزمت على الاتصال بالسيدة فان دن بيش. فإذا لم تكن مع روجيه في دوفيل، وهذه معجزة، ربما يكون بوسعها العمل بعد الظهر، وهو الشيء الوحيد الذي استهواها. فكرت في سرها: "مثل بعض الرجال الذين يذهبون إلى مكاتبهم يوم الأحد تجنباً لأسرهم". كانت السيدة فان دن بيتش مصابة بنوبة مرارة خفيفة، وتتألم منها بوضوح. ولكنها قابلت اقتراحها بحماس.

ss

ذهبت بول إلى جادة كليبه وهي تحمل عينة من كل الأنواع. وجدت السيدة فان دن بيش هناك مرتدية روباً دمشقياً، وبيدها كأس من الماء، ومصابة بغدة وردية(*) خفيفة. خطر لبول فجأة أنه ينبغي أن يكون والد سيمون وسيماً جداً ليعوض عن ابتذال هذا الوجه.

– كيف حال ابنك؟ تعلمين أننا التقيناه في أمسية سابقة.

لم تقل بأنها تغدت معه البارحة، أدهشها تحفظها هذا. وفي الحال أحست بوجود وجه معذب أمامها.

– وكيف لي أن أعرف؟ إنه لا يكلمني ولا يخبرني بشيء إلا همومه المالية طبعاً. زد على ذلك أنه يشرب. لقد كان والده يشرب من قبله.

قالت بول باسمة:

– لا يبدو أنه مدمن كبير.

كانت بول تستعيد وجه سيمون الأملس، وسحنته الإنكليزية الحسنة التغذية.

– إنه وسيم، أليس كذلك؟.

تحمست السيدة فان دن بيش وجذبت (البوم) الصور الذي يشاهد فيه سيمون طفلاً، سيمون فوق جواد صغير مع فتاتين إنكليزيتين يحطن به من الجانبين. سيمون تلميذ منذهل في مدرسة... الخ. بلا ريب توجد ألف صورة له، واستغربت بول في قرارة نفسها من أنه لم يصبح شخصاً مقيتاً ولا لوطياً.

(*) الغدة الوردية: مرض جلدي يصيب الوجه مسبباً توردًا وإحمراراً فيه.

ss

تنهدت الأم المحزونة وقالت:

- ولكن توجد دوماً لحظة يبتعد فيها الأبناء عنا.

وبلحظة، عادت لتكون امرأة أكثر طيشاً بقليل مما يجب أن تكون.

- ينبغي القول أن الفرص لا تنقص...

قالت بول بتهذيب:

- بالتأكيد. هل ترغبين، يا سيدة، بمشاهدة هذه المنسوجات، يوجد واحد منها..

- نادني تيريزا، أرجوك.

أصبحت ودودة، فطلبت إحضار الشاي، وطرحت عدة أسئلة. فكرت بول بأن روجيه ربما قد نام معها قبل عشرين عاماً، فأخذت تبحث عبثاً عن شيء من الفتنة في هذا الوجه المرهق. وتحاول بيأس، في الوقت نفسه، بأن تحصر الحوار في الميدان المهني، بيد أنها رأت تيريزا تنزلق بشكل حتمي نحو مسارات النساء. لقد كانت هكذا دوماً. وارتسم على وجهها شيء من الاتزان والزهو اللذان يستمطران أسوأ الكلمات. بادرت السيدة فان دن بيش إلى القول:

- أنت اكثر شباباً مني بكثير - على الأرجح - بيد أنك تعلمين إلى أي حد يمكن للبيئة أن تؤثر..

لم تستطع بول كظم ابتسامتها من هذه الـ"على الأرجح" ولم تعد تصغي إليها. هذه المرأة تذكرها بأحد ما. إنها تشبه ببساطة "التقليد" الذي أداه سيمون عنها، فأدركت أنه يمتلك

موهبة حدس معينة، وفظاظة معينة. لم تجعلها مخاوفها تراهما. وحين قال: "اتهمك بأنك تركت الحب يموت. وبالعيش على الأعذار، وبالتحايل والاستسلام، أحكم عليك بالوحدة" هل تراه كان يفكر بها؟ هل كان يتنبأ بأمر ما في حياتها؟ وهل فعل ذلك عمداً؟ شعرت بالغضب يجتاحها لهذه الفكرة.

لم تكن تصغي للثرثرة المديدة القريبة منها. وجعلها دخول سيمون ترتعش. توقف على الفور إذ رآها، ورسم تكشيرة خفيفة على وجهه ليخفي سروره الذي لامسها.

– وصلت في الوقت المناسب، سأساعدك.

– وآسفاه! علي أن أغادر حالاً.

كانت ترغب في الخروج بسرعة، ترغب بالفرار والإفلات من نظرات الأم وابنها، والاختباء في منزلها. بصحبة كتاب كان ينبغي أن تكون في هذه الساعة. بصحبة روجيه على الطريق. تدير المذياع وتطفئه. ضاحكة معه، أو مرتاعة منه: لأن غضباً أعمى استبد به، بسبب سائق كاد يقودهم غير مرة إلى حافة الموت. وحين نهضت بهدوء قال سيمون:

– سأرافقك.

عند الباب، استدارت نحوه ونظرت إليه للمرة الأولى. منذ وصوله كان يبدو مريضاً، ولم تتمالك نفسها عن القول له بذلك. فقال:

– هذا بسبب الطقس. هل يمكنني أن أرافقك حتى الطريق؟.

ss

هزت كتفيها وهبطا الدرج. كان يمشي خلفها صامتاً. عند الطابق السفلي توقف، وحين لم تعد تسمع وقع خطاه استدارت بشكل آلي، فوجدته يتكئ على الدرابزين.

- هل ستصعد ثانية؟.

انطفأ النور، ولم يعد يضيء الدرج الكبير سوى بصيص ضوء باهت يتسرب من نافذة. فتشت بعينها عن موقته الإنارة.

- إنها خلفك.

نزل الدرجة الأخيرة وتقدم نحوها. "سينقض عليّ" فكرت بانزعاج. مدَّ ذراعه من الجانب الأيسر لرأسها، وأشعل الضوء، ثم وضع ذراعه اليمنى في الجهة الأخرى بحيث لم تعد تستطيع حراكاً. قالت بمنتهى الهدوء:

- دعني أذهب.

لم يجبها. إنما انحنى ووضع رأسه على كتفها بحذر، سمعت قلبه يخفق بضربات قوية، وفجأة شعرت بالاضطراب.

- دعني يا سيمون.. أنت تزعجني.

لكنه لم يحرك ساكناً، وبكل بساطة تمتم باسمها مرتين بصوت خفيض "بول، بول"، ومن وراء نقرته، رأت قفص الدرج كئيباً وثقيلاً أكثر من صمتٍ أو قبرٍ. قالت بصوت خفيض أيضاً:

- صغيري سيمون دعني أذهب.

وحين ابتعد ابتسمت له للحظة قبل أن تنطلق.

ss

6

اكتشفت، عند استيقاظها صباح يوم الأحد، وجـود رسالة تحت باب منزلها وهذا ما كان يسمى قديماً، وبشكل شاعري نهاراً أزرقاً، وقد وجدته يوماً شاعرياً لأن الشمس المشرقة مجدداً في سماء صافية من أيام تشرين الثاني قد غمرت حجرتها بالظلال والأضواء الدافئة.

كتب سيمون: (ستقام حفلة موسيقية رائعة في الساعة السادسة في صالة بلويل. هل تحبين موسيقا برامز؟ أعتذر عن البارحة).

ابتسمت بسبب الجملة الثانية: "هل تحبين موسيقا برامز؟"إنه من نوع الأسئلة التي دأب الفتية على طرحها عليها عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها، وبلا ريب فقد أعيد طرح هذه الأسئلة عليها فيما بعد لكن دونما إصغاء للإجابة. في ذلك الوسط، وفي تلك الفترة من الحياة: من كان يصغي لمن ؟زد على ذلك، أكانت تحب موسيقا برامز؟.

ss

فتحت جهاز "البيك- آب " فتشت بين اسطوانته، وعثرت خلف صف من أعمال فاغنر التي تحفظها غيباً على كونشيرتو لبرامز لم تكن قد سمعته قط.

كان روجيه يحب فاغنر ويقول: " إنه رائع، موسيقا تثير صدى عميقاً، هذه هي الموسيقا".

وضعت الكونشيرتو فوجدت بدايته رومانسية، وسهت عن سماعه حتى نهايته. تنبهت لذلك حين توقفت الموسيقا، فلامت نفسها لأنها تخصص في الوقت الراهن، ستة أيام لقراءة كتاب، ولا تستطيع العثور مجدداً على الصفحة التي قرأتها، وتنسى الموسيقا. لم تعد تركز انتباهها إلا على عينات القماش، وعلى رجل لم يوجد أبداً. كانت تهيم على وجهها، وتفقد أثره، وقد لا تعثر عليه أبداً. (هل تحبين موسيقا برامز؟).

أمضت لحظة أمام النافذة المشرعة، وهي تستقبل الشمس مبهورة بأشعتها. وهذه العبارة الصغيرة (هل تحبين موسيقا برامز؟) بدت لها، فجأة، كشفاً لكل هذا النسيان الهائل، لكل ما كانت قد نسيته، لكل تلك الأسئلة التي تجنبت أثارتها عمداً.(هل تحبين موسيقا برامز). هل تراها أحبت شيئاً آخر غير نفسها وحياتها الخاصة؟ مؤكد أنها قالت إنها تحب ستاندال، وهي تعرف أنها تحبه. هذا هو المهم. إنها تعرف بأنها تحبه. وربما تعرف بالبساطة نفسها أنها تحب روجيه. صفات طيبة مكتسبة، وسمات رائعة. رغبت بالكلام مع أحدهم

كرغبتها به عندما كانت في سن العشرين. فاتصلت بسيمون. لم تكن تدري ما تقول له. على الأرجح ستقول: "لست أدري إن كنت أحب موسيقا برامز، لا اعتقد بذلك."لم تكن تدري إن كانت ستذهب إلى تلك الحفلة. قد يتوقف ذلك على ما سيقوله، وعلى نبرة صوته، ترددت، ووجدت هذا التردد ممتعاً. لكن سيمون كان قد ذهب للغداء في الريف، وقد يغير رأيه حتى الساعة الخامسة. أقفلت السماعة. في غضون ذلك كانت قد قررت الذهاب إلى الحفلة. قالت في سرها: "ليس سيمون من سألقاه في الحفلة إنما الموسيقا. ربما أذهب كل أيام الآحاد، إذا لم يكن الجو رديئاً بعد الظهر، إنه لانشغال رائع بالنسبة لامرأة وحيدة."

أسفت في الوقت ذاته لأن هذا اليوم هو يوم الأحد، وليس بوسعها الإسراع في الحال إلى متجر لشراء اسطوانات لموزار الذي تحب موسيقاه، وبعض الاسطوانات لبرامز. كانت تخشى وحسب من أن يمسك سيمون يدها خلال الحفلة. تخشى ذلك فعلاً. خاصة وأنها تتوقعه. إذ لم يزل تَحَقُق توقعاتها المتخيلة يغمرها بانزعاج لا يقاوم. لقد أحبت روجيه لهذا السبب أيضاً. كان دائماً خارج التوقع، ومختلف قليلاً عن كل الأحوال المعتادة.

في قاعة بلويل. في الساعة السادسة ألفت نفسها مأخوذة بهياج الجمهور، كادت أن تضلّ سيمون الذي لوح لها ببطاقة

ss

دون أن يقول شيئاً. صعدت الدرجات بعجلة نحو مرشدي الصالة المتفرقين. كانت القاعة ضخمة ومظلمة، والفرقة الموسيقية تعزف لحناً أولياً متنافراً على وجه الخصوص، كأنما لتجعل الجمهور يقيم عالياً معجزة الانسجام الموسيقية فيما بعد. التفتت نحو سيمون:

– لم أكن أعلم إن كنت أحب موسيقا برامز.

قال سيمون:

– أما أنا فلم أكن أعلم إن كنت ستأتين. وأؤكد لك أن الأمر سيان لدي سواء كنت تحبين موسيقا برامز أم لا.

– كيف كان الريف؟.

نظر إليها بدهشة. فقالت:

– اتصلت بمنزلك كي أقول لك.. إنني موافقة.

– خفت أن تتصلي وتخبريني العكس، أو لتطلبي مني ألا أخرج مطلقاً.

– هل كان الريف جميلاً؟ في أي ناحية كنت؟.

كانت تكابد غبطة حزينة من تخيل رابية "هودان" مغمورة بأنوار المساء. تمنت لو يكلمها سيمون عنها. لو كانت هناك في مثل هذه الساعة لتوقفت في "سيثوي" بصحبة روجيه، ولتمشيا على الطريق نفسه تحت الأشجار الصهباء. قال سيمون:

– كنت في أماكن مختلفة، ولم أهتم بالأسماء. من ناحية أخرى بدأت الحفلة.

علا التصفيق في القاعة، حيا قائد الفرقة الجمهور، رفع عصاه فاسترخى في مقاعدهم ألفا شخص. إنه الكونشيرتو الذي ظنَّ سيمون أنه يعرفه، شجي قليلاً، ويغدو أكثر شجواً في بعض اللحظات. كان يشعر بمرفق بول فوق مرفقه، وحين تعلو أنغام الفرقة الموسيقية كان يتعالى معها. وما إن تبدأ الموسيقا بالخفوت وحسب، حتى يغدو متيقظاً لسعال جيرانه، ولشكل جمجمة رجل يجلس على مسافة صفين منه. كان متيقظاً بشكل خاص لغضبه. في الريف، وفي فندق قريب من هودان صدف روجيه، صدف روجيه مع فتاة. كان مغتاظاً وقد حيا سيمون دون أن يقدمه لها.

– يبدو لي أننا نلتقي طوال الوقت.

لم يقل سيمون المندهش أية كلمة. كانت نظرة روجيه تتوعده وتأمره بالسكوت عن هذا اللقاء، لكنها لم تكن، والحمد لله، نظرة تواطؤ من رجل صريح بلا هموم إلى رجل صريح بلا هموم. بل نظرة غاضبة. لم يجب بأية كلمة. لم يكن يخشى روجيه بل خشي أن يسبب ألماً لبول. لقد أقسم على ألا يَحدُث أي أذى لهذه المرأة بسببه. وللمرة الأولى كان يرغب في التدخل بين شخص وحظه العاثر. هو الذي تسأم منه عشيقاته بسرعة، ويخفنه رغم بوحهن بأسرارهن، وعزمهن على أن يلعب بأي ثمن دور الذكر الحامي. هو سيمون المعتاد كثيراً على الهروب. بات يرغب بالانكفاء والترقب. ولكن ترقب ماذا؟ ماذا لو أدركت هذا المرأة أنها كانت تحب نذلاً لا حدود لنذالته: لعل هذا الأمر

هو الأكثر شيوعاً بين الناس.. قد تغدو حزينة، قد تقلّب في ذهنها موقف روجيه، وربما تكتشف عيوبه. ارتفع صوت الكمان فوق أصوات الفرقة الموسيقية، اختلج بيأس في لحن متقطع حزين، ثم انخفض ثانية، وغرق من فوره في موجة شجية غطت على سواها. أوشك سيمون أن يلتفت نحو بول ويحتضنها ويقبلها. أجل، يقبلها.. تخيل أنه ينحني نحوها، فمه يلامس فمها، فتطوق عنقه بذراعيها.. أغمض عينيه. ظنت بول وهي ترى تعابير وجهه أنه لا بد من أن يكون مولعاً بالموسيقا حقاً. لكن يداً مرتجفة بحثت في الحال عن يدها فسحبتها نافذة الصبر.

اصطحبها بعد الحفلة لتناول الكوكتيل، وهو ما كان يعني بالنسبة لها عصير البرتقال، وبالنسبة له شراباً مسكراً. تساءلت إن كانت مخاوف السيدة فان دن بيش لها ما يبررها.كان سيمون بعينين متألقتين، ويدين مرتجفتين يحدثها عن الموسيقا وهي تسمعه بأذنين شاردتين. لعل روجيه استعد لمغادرة "ليل" في الوقت المحدد، وسيعود لتناول العشاء. زد على ذلك أن الناس يرونهما معاً. فسيمون وسيم جداً. أو ببساطة هو أكثر فتوة من أن يصاحبها، وهي أكبر قليلاً من أن تصاحبه على الأقل؟.

- أنت لا تصغين إلي؟.

- بلى. ولكن عليّ أن أغادر. أحدهم سيتصل بي. عدا عن ذلك الناس ينظرون إلينا كثيراً هنا.

قال سيمون بإعجاب:

ss

- لا بد من أن تعتادي على ذلك.

لقد جعلته الموسيقا، وشراب الجن المرافق لها يشعر أنه عاشق حتماً. أخذت تضحك لأنها وجدت أنه يصبح في بعض الأحيان مثيراً للشفقة تماماً.

- اطلب الحساب يا سيمون.

فعل ذلك على مضض. حتى إنها نظرت إليه برقة للمرة الأولى، ولا شك خلال فترة ما بعد الظهيرة. لعله انساق إلى عشقها بعذوبة، أو لعل لعبته الصغيرة سترتد عليه؟ لقد حسبته متعطشاً للفتوحات، ربما كان أكثر سذاجة، وأكثر حساسية، وأقل زهواً. كان أمراً مضحكاً أن تكون هيئته هي التي تفيده في البقاء بقربها. فقد وجدته وسيماً جداً. بل أكثر وسامة من أن يكون حقيقياً.

إن كان الأمر كذلك فقد أخطأت بلقائه، ويتوجب عليها الكف عن ذلك. نادى على النادل وهو يدير كأسه بين يديه صامتاً. فجأة غرق في الصمت. وضعت يدها على يده.

- لا تؤاخذني يا سيمون فأنا مستعجلة قليلاً. لا بد أن روجيه ينتظرني.

كان قد سألها في أمسيتهم الأولى في حانة ريجين: "هل تحبين روجيه؟" بماذا أجابته؟ لم تعد تذكر. على أية حال، لا بد أنه يعرف أجابتها جيداً.

– آه، أجل،.. روجيه. الرجل. اللامع.

قاطعته قائلة:

– أحبه.

شعرت بالخجل. وتولّد لديها انطباع بأنها قالتها بصوت مسرحي.

– وهو؟.

– يحبني أيضاً.

– طبعاً. الكل مع من هو الأفضل بين الناس الجيدين.

قالت له بلطف:

– لا تلعب دور المتشككين. ليس مناسباً لسنك. عليك أن تكون سريع التصديق، إنك..

أمسك بها من كتفيها وهزها.

– لا تسخري مني، توقفي عن محادثتي بهذه الطريقة..

فكرت بول وهي تحاول الإفلات منه : غالباً ما أنسى أنه رجل. إن له رأس رجل حقيقي في هذه اللحظة. رأس رجل مهان. إنه ليس ابن الخامسة عشر، بل ابن العشرين. هذا صحيح! قالت برقة:

– لست أسخر منك. إنما مواقفك. أنت تمثل..

حررها من يديه، وبدا متعباً:

– صحيح أني أمثل. لقد مثلت معك دور الشاب، والمحامي اللامع، والعاشق الوجل، والطفل المدلل. والله اعلم أي

دور أيضاً. بيد أني منذ عرفتك صارت أدواري كلها من أجلك. ألا تعتقدين بأن هذا هو الحب؟.

قالت باسمة:

– إنه تعريف جيد بما يكفي.

سكتنا للحظات متضايقين.

– أود لو أمثل دور العاشق الوله.

– قلت لك بأنني أحب روجيه.

– أما أنا فاحب أمي، ومربيتي العجوز، وسيارتي...

قاطعته :

– لا أرى أية علاقة لهذا بموضعنا.

شعرت برغبة في المغادرة. هل يمكن لهذا الكاسر الغر الصغير أن يستوعب سيرتها، سيرتهما، وتلك السنوات الخمس المزوجة بالمتعة والشكوك، بالدفء والمعاناة؟. لن يستطيع أحد أن يفرقها عن روجيه.. بسبب هذا اليقين،شعرت نحوه بعرفانٍ ما، وبحنان جعلها تستند إلى الطاولة. فقال سيمون:

– أنت تحبين روجيه لكنك وحيدة. أنت وحيدة يوم الأحد، تتناولين عشائك وحيدة. ومن المرجح أنك.. أنك تنامين وحيدة في غالب الأحيان. أما أنا فسأنام في حضنك. سأحتضنك بين ذراعي طوال الليل، وسأقبلك في نومك. بوسعي أنا أن أحب أيضاً. أما هو، فلم يعد يستطيع وأنت تعرفين ذلك..

هبت واقفة وهي تقول:

ss

– لا يحق لك..

– يحق لي أن أتكلم. يحق لي أن أعشقك، وان أخطفك منه إذا استطعت.

باتت في الخارج الآن. نهض ثم جلس ثانية، ورأسه بين يديه. فكر في سره، "إنني بحاجة إليها.. بحاجة إليها.. وإلا فإنني سأتعذب".

ss

7

كانت عطلة نهاية الأسبوع ممتعة جداً. هذه الـ"ميزي" لقد اعترفت لـه بغنـج أن اسمهـا الحقيقـي هـو مارسـيل، وهـو اسـم يتعارض بداهة مع نزعتها النجومية - هـذه الـ "مـيزي" وفـت بوعدها. فما إن اضطجعت، حتى كفت عـن النهـوض، بخـلاف بعض النسوة اللاتي يعرفهن روجيه، واللاتي يحضـرن في موعـد حفلة الكوكتيل، والعشاء، والشاي، الخ، ليجدن ذريعـة لتغيـير ملابسـهن.

لقد أمضيا يومين دون أن يخرجا من حجرتهمـا، باسـتثناء تلك المرة التي صدفا فيها طبعاً، ذلك الشاب الظريف ابن تيريزا. ثمة فرصة ضئيلة في مصادفة بول، بالتأكيد، غير أن روجيه ظـل قلقاً على نحـو غـامض. كـانت ذريعـة الذهـاب إلى "ليـل" فظـة قليلاً. وهذا لا يعني أنه يعتبر نفسه قد خدع بول بخيانته لهـا، ولا حتى بكذبه عليها. لكن ينبغي لهذه الخيانات ألا تنحصر في

الزمان والمكان. "لقد رأيت صديق أمسيتك الماضيه، وهو يتناول غداءه في هودان". تخيل أن بول ستستقبل هذه العبارة دون أن تقول شيئاً، وربما بنظرة مختلسة سريعة. بول متألمة.. إنها صورة قديمة، وغالباً مطرودة حتى ليشعر بالخجل منها. وبالخجل كذلك من المتعة التي سينالها بعد قليل عند ذهابه إلى منزلها، بعد أن يعيد ميزي - مارسيل. ولكنها ما كانت لتعلم. لابد أنها ارتاحت من دونه طوال يومين، هو الذي كان يرغمها على الخروج أغلب الأحيان، ولابد أنها لعبت البريدج مع صديقاتها، والانشغال بشقتها، وقراءة ذلك الكتاب الجديد... سأل نفسه فجأة لماذا يبحث بحماسٍ عن كيفية إنفاق بول لزمن يوم الأحد؟.

- إنك تحسن التصرف.

قال صوت بقربه فانتفض، رأى ميزي.

- أتعتقدين هذا؟.

- فضلاً عن ذلك، أنت تجيد كل شيء.

استطردت وهي تتهالك على المقعد. وتمنى أن يحدثها عن السيان، نسيان جسده التافه، وشهواته المشبعة، للحظة. أطلقت ضحكة فاترة، أو أرادتها كذلك. وأمسكت بيده ووضعتها على ساقها. كانت ممتلئة ودافئة تحت أصابعه، فابتسم. كانت حمقاء، ثرثارة، ومرائية. ولفرط سخريتها من الحب، فقد جعلته فجاً على نحو غريب، أما أسلوبها في إفناء أية رغبة

لديه في الحنان أو الألفة، أو المودة الغامضة، فقد جعلها أكثر إثارة. "جسد تافه فاحش، مستغلق، دعي، ومبتذل، ومعه أمارس الحب بمهارة." أخذ يقهقه بصوت مرتفع. لم تسأله عن السبب، إنما مدت يدها إلى الراديو. وتابع روجيه حركتها بعينيه.. ماذا قالت بول في تلك الأمسية؟ عن الراديو وعن سهراتهما..؟لم يعد يتذكر.

كانت المحطة تبث حفلة موسيقية فغيرت عنها، ثم عادت إليها لعدم توفر الأفضل. قال المذيع بصوت راعش: إنها مقطوعة لبرامز" وانفجر التصفيق طويلاً. فقال روجية :

– حين كنت في الثامنة من عمري، كنت أرغب في أن أصبح قائد فرقة موسيقية. وأنتِ؟.

– أما أنا فكنت أرغب في أن أعمل في السينما، وسأحقق ذلك.

فكر أن ذلك أمر مرجح، أنزلها أمام باب منزلها أخيراً. تشبثت بردائه.

– غداً سأتعشى مع سيدي الدنيء. لكنني أريد لقاء صغيري روجيه في القريب العاجل، في القريب العاجل. سأخابرك عندما تسنح لي الفرصة.

ابتسم، وهو في غاية السرور لقيامه بدور الفتى العاشق المتواري، ولاسيما بعد أن تحدثت عن رجل آخر في مثل سنه.

استطردت قائلة :

ss

- وأنت، هل ستقدر على ذلك؟ قيل لي بأنك لست رجلاً طليقاً...

قال مع تكشيرة خفيفة:

- أنا رجل طليق.

مع ذلك لم يصل إلى حد الكلام معها عن بول! قفزت إلى الرصيف، لوحت بيدها من وراء المدخل، فانطلق من جديد. ضايقته قليلاً عبارته الأخيرة: (أنا رجل طليق) فهذا يعني: طليق في ألا أتحمل المسؤوليات. زاد من سرعته: كان يريد لقاء بول بأقصى سرعة، وحدها هي من يمكنها أن تطمئنه، وستفعل.

* * *

لابد أنها عادت قبله بفترة وجيزة لأنها لم تزل ترتدي معطفها. كانت شاحبة، وحين وصل، ألقت نفسها عليه، وبقيت على كتفه دون حراك. طوقها بذراعيه ووضع خده على شعرها، وانتظر أن تكلمه. لقد أحسن صنعاً بعودته السريعة، لأنها كانت بحاجة إليه، ولابد أنه قد حدث لها شيء ما، ولدى تفكيره بأنه قد هجس بذلك مسبقاً، أحس بحنوه عليها يكبر ويتسع. إنه يحميها. مؤكد أنها قوية، ومستقلة، وذكية، لكنها على الأرجح أكثر أنوثة من أية امرأة عرفها، إنه يعرف هذا جيداً، ولهذا فهو ضروري لها. تحررت برفق من بين ذراعيه.

- هل كان سفرك موفقاً؟ كيف هي ليلْ؟.

ss

رمقها بنظرة. لا ، بالتأكيد، إنها لا ترتاب بشيء. ليست من النساء اللاتي ينصبن أفخاخاً بهذه الطريقة. رفع حاجبيه.

– لابأس، لكن أنت، ما بك؟.

قالت:

– لاشيء.

واستدارت.لم يلح عليها، لأنها ستخبره بذلك فيما بعد.

– ماذا فعلتِ خلال هذه الفترة؟.

– البارحة، اشتغلت. واليوم ذهبت إلى حفلة موسيقية في قاعة بويل.

سألها مبتسماً:

– هل تحبين موسيقى برامز؟.

كانت توليه ظهرها، فاستدرات فجأة حتى أنه تراجع خطوة للوراء.

– لماذا تسألني هذا السؤال؟.

– لقد سمعت جزءاً من الحفلة عبر المذياع، أثناء عودتي.

قالت:

– أجل: بالتأكيد، أذيعت على الهواء مباشرة، هذا صحيح.. لكنك فاجأتني بهذا الجانب المغرم بالموسيقى عندك.

– وعندك أيضاً. ماذا دهاك؟ حسبتك تلعبين البريدج في منزل داريه، أو...

كانت قد أضاءت المصابيح في الصالون الصغير، وخلعت معطفها بحركة متعبة.

ss

– دعاني الصغير فان دن بيش إلى الحفلة؛ لم يكن لدي ما أفعله، ولم أتذكر إن كنت أحب موسيقى برامز.. هل تصدق؟ لم أتذكر إن كنت أحب موسيقى برامز..

أخذت تضحك برقة في البداية، ورويداً رويداً غدا ضحكها عالياً. ثارت زوبعة في رأس روجيه. سيمون فان دن بيش؟ ولم يحدثها عن لقائهما... في هودان؟ وبادئ ذي بدء لماذا تضحك؟.

– اهدئي يا بول. قولي لي أولاً ماذا كنت تفعلين مع هذا الأفّاق؟.

قالت في غمرة ضحكها:

– أسمع موسيقى برامز.

– كفي عن الحديث عن برامز.

– كان الموضوع يتعلق به...

أمسك بها من كتفيها. كانت عيناها مغرورقتين بالدموع لفرط ما ضحكت. قال:

– بول، عزيزتي بول، ماذا روى لك هذا الشخص؟ وفي البداية، ماذا يريد منك؟.

كان حانقاً؛ فقد شعر أنه منبوذ ومخدوع:

– طبعاً، إنه ابن العشرين عاماً. إنه...

قالت برقة:

– بالنسبة لي هذه نقيصة.

ss

ضمها بين ذراعيه.

– بول، أنا أثق بك ثقة كبيرة، ثقة عمياء! ولا أحتمل فكرة أن طائشاً صغيراً من ذلك النوع، يمكن أن يستهويك.

أخذ يضمها بقوة إلى صدره؛ وفجأة، تخيل بول وهي تمد يدها نحو شخص آخر، بول تعانق شخصاً آخر، تهب حنانها وعنايتها لآخر؛ فآلمه ذلك.

كانت بول تفكر دون مرارة أو غم: " الرجال طائشون. فقد قال: إنني أثق بك ثقة كبيرة. ثقة عمياء بحيث يمكنني أن أخدعك بها، وأتركك وحيدة، وبحيث يستحيل أن يحدث العكس. هذا أمر رائع".

قالت:

– إنه شاب لطيف، ولا قيمة له. هذا كل ما في الأمر. أين ترغب أن نتناول عشاءنا؟.

ss

8

كتب سيمون: "أستميحك العذر. ففي الحقيقة لم يكن من حقي أن أقول لك ما قلته. لقد شعرت بالغيرة، وأحسب أن ليس من حق المرء في أن يغار إلا على ما يملكه. على كل حال، يبدو جلياً أني أزعجتك حقاً. سوف ترتاحين مني، فأنا ذاهب مع أستاذي العزيز إلى إحدى المقاطعات لدراسة واحدة من القضايا. سنقيم في منزل ريفي قديم عند أصدقائه. وأتخيل أن الأسرّة ستفوح برائحة الورود العطرية، وتُضرم النار في كل حجرة، وتغرد العصافير كل صباح أمام نافذتي. إلا أنني أعرف أنه لن يتاح لي هذه المرة، أن ألعب دور الشاب الرعوي. ستنامين بقربي. أتصورك في متناول يدي، مضاءة باللهب، سأتشوق للعودة عشر مرات. لا تحسبي، حتى لو لم ترغبي بلقائي ثانية، لا تحسبي أني لا أحبك، المخلص سيمون".

ss

كانت الرسالة تهتز بين أصابع بول. سقطت فوق غطاء السرير، ثم فوق السجادة. أراحت بول رأسها إلى الوسادة، وأغمضت عينيها. إنه يحبها ولا شك... استيقظت متعبة هذا الصباح، لأنها نامت نوماً سيئاً. وسببُ ذلك جملة صغيرة أفلتت من روجيه بالأمس حين سألته عن مسيرة عودته، جملة صغيرة لم تعرها اهتماماً في البداية، لكنه في الرد عليها تلعثم، وأخذ صوته يخفت رويداً رويداً حتى غدا همساً.

"بالتأكيد، هذه هي بشاعة العودة من عطلة يوم الأحد.. لكن في الواقع، فإن الطريق ذا الاتجاهين، حتى لو كان مزدحماً، فإنه سريع.."

لا ريب في أنه لو لم يغير نبرة صوته لما لاحظت شيئاً. ولتخيلت في الحال، وبردة فعل لا شعورية من روحها، ردة الفعل المزعجة للاحتماء هذه التي ما فتئت تنمو منذ عامين، لتخيّلت طريقاً عجيباً ذا اتجاهين، جديداً كل الجدة نحوِ"ليل". بيد أنه توقف، وما أن نظرت إليه. وقد تعين عليها أن تستأنف الحوار بعد خمس عشرة ثانية، كشخصين هادئين. انتهى عشاؤهما بالطريقة نفسها. إلا أنه بدا لبول أن الإعياء، والإحباط الذي تشعر به، فضلاً عن كل غيرة وكل فضول، لم تغادرها البتة. قبالتها، ينتصب هذا الوجه الأليف والمحبوب، هذا الوجه الذي يسعى لمعرفة إن كانت قد فهمت، هذا الوجه الذي يتحرى وجود الألم على وجهها مثل جلاد فظ. وانتهى بها

ss

الأمر إلى التفكير: "ولكن ألم يسبب لي سابقاً ما يكفي من الألم؟ وعلى كل حال، أليس سواء بالنسبة له إن سبَّب لي ألماً أم لا"؟. بدا لها أنها لن تستطيع أبداً النهوض عن كرسيها، واجتياز المطعم بيسر، وبتلك الأناة التي تنتظر منها، ولا حتى أن تودعه على عتبة بيتها. تمنت لو أن بمقدورها القيام بأمر آخر: تمنت لو تستطيع أهانته، وأن تقذف كأسها نحو رأسه، وأن تتحرر من نفسها، ومن كل ما يجعلها محترمة. من كل ما يميزها عن دزينة من المومسات التافهات اللاتي يلتقيهن. تمنت لو أنها واحدة منهن. لقد قال مراراً ما يمثّلن بالنسبة له، وأن هذه هي عادته التي لا يريد إخفاءها عنها. بلى، إنه رجل صادق. لكنها تساءلت إن لم يكن الصدق، الصدق الوحيد الممكن في هذه الحياة المعقدة، لا يتضمن حب شخص ما بما يكفي لجعله سعيداً. حتى في تنازله، وقت اللزوم، عن كل تصوراته الأثيرة عليه.

بقيت رسالة سيمون ملقاة فوق السجادة فداستها وهي تنهض. التقطتها وأعادت قراءتها ثانية، ثم فتحت درج طاولتها، تناولت قلماً وورقة وردت عليها.

* * *

مكث سيمون وحيداً في الردهة، غير راغب في الانضمام إلى الحشد الذي يهنيء الأستاذ الكبير، بعد انتهاء القضية. كان المنزل كئيباً وبارداً، وقد تجمد فيه من البرد الليلة الماضية. ويرى عبر النافذة منظراً طبيعياً ساكناً لا حراك فيه، شجرتان

عاريتان ومرج مصفرّ، يتعفن فيه ببطء مقعدان من خشب الأسل نذرهما للخريف بستاني لا مبالٍ. كان يقرأ في كتاب إنكليزي، قصة غريبة عن امرأة تحولت إلى ثعلب، ومن وقت لآخر يقهقه ضاحكاً، إلا أن ساقيه كانتا ترتجفان، فيشبك قدميه ويفكهما، ويشعر بأن توعكه الجسدي يتسرب رويداً رويداً بينه وبين الكتاب إلى أن نهض، وضع الكتاب جانباً وخرج.

نزل حتى وصل بركة صغيرة أسفل الحديقة، مستنشقاً رائحة البرد، ورائحة المساء المزوجتين برائحة الأوراق الميتة المحترقة في مكان بعيد، لم يستطع أن يميز دخانها المنبعث من وراء السياج. كان يحب الرائحة الأخيرة من بين جميع الروائح، فتوقف هنيهة ليشمها بعمق، مغمض العينين. بين فينة وأخرى، كان عصفور يطلق صرخة صغيرة نائمة. وهذا الانسجام التام، واجتماع هذه الأحزان خفف عنه حزنه على نحو غامض. انحنى فوق الماء الداكن اللون، غمس يده فيه، نظر إلى أصابعه النحيلة التي تظهرها المياه مائلة، وتكاد تكون عمودية على راحة يده. لم يحرك ساكناً، ثم أغلق قبضة يده في الماء بهدوء كأنما ليمسك سمكة سريّة. لقد انقضت الآن سبعة أيام لم ير فيها بول. سبعة أيام ونصف اليوم. لا بد أنها استلمت رسالته، وبعد أن قرأتها هزت كتفيها قليلاً، وأخفتها كي لا يعثر عليها روجيه، ويسخر منها. ولأنها امرأة طيبة، فهو يعرف ذلك. إنها امرأة طيبة، وحنون وبائسة، وهو يحتاج إليها. ولكن كيف السبيل لإخبارها بذلك؟ لقد حاول ذات مساء، في هذا المنزل المشؤوم أن يفكر بها

ss

بتركيز كبير، ولزمن طويل لعلّه يؤثر فيها، وهي في باريس البعيدة، وحتى أنه نزل ثانية مرتدياً منامته ليبحث في المكتبة عله يعثر على كتاب عن التخاطر عن بُعد. عبثاً يحاول، بالتأكيد! هذا عمل صبياني، وهو يعرف ذلك، وما زال يحاول التخلص من مشاكله بحلول صبيانية، أو بضربات الحظ. إلا أن بول هي الشخص الذي ينبغي أن يكون جديراً به. وما عاد يستطيع كتمان ذلك. لن يستطيع أن يغزوها بفتنته وسحره، بل على العكس، يشعر أن هيئته تضرُّ به أمامها. "أملك رأساً مثل رأس صبي الحلاق" تحسَّر بصوت مرتفع، فتوقف العصفور لبرهة عن زقزقته المعذبة.

صعد من جديد نحو المنزل، تمدد فوق السجادة، ورمى قطعة حطب في الموقد. كان الأستاذ فلوري على وشك العودة، متواضعاً في انتصاره، لكنه أكثر ثقة بنفسه مما اعتاد عليه. سيتطرق للقضايا الشهيرة أمام بعض الريفيات المنبهرات اللاتي سيأخذن وقت تناول الحلويات، وبشيء من الضجر بإجالة أبصارهن التي لوّنها نبيذ برغونيا الخفيف نحو المساعد الشاب المتمرن، المهذب والصامت، أي نحوه هو. "ستكون محظوظاً بهذه، يا صغيري سيمون" سيهمس له الأستاذ فلوري، وهو يشير له إلى أكبرهن سناً على الأرجح. سبق لهما أن سافرا معاً، ولكن التلميحات الفقهية للمحامي الكبير لم تقرب أحدهما من الآخر كثيراً.

لقد تأكدت توقعاته. أجل، إنه واحد من أكثر العشاءات فرحاً في حياته. لم يتوقف عن الكلام، وقاطع المحامي الكبير،

ss

وأغوى جميع النسوة الحاضرات. كان الأستاذ فلوري قد أعطاه، حين وصوله، رسالة مبعوثة من جادة كليبة إلى قصر العدل في روان. إنها من بول. كان يضع يده في جيبه، يتحسسها بأصابعه ويبتسم مغتبطاً. ولدى استغراقه في الكلام، كان يحاول أن يتذكر عباراتها بدقة، و يعيد ترتيبها في ذهنه بهدوء.

"صغيري سيمون – هكذا سمته دوماً – كانت رسالتك مفرطة الحزن. أنا لا أستحق هذا القدر. ومن جهة أخرى، اشتقت إليك. أشعر بالضياع " و أعادت كتابة اسمه ثانية "سيمون" و من ثم أعادت هاتين الكلمتين السحريتين: "عد بسرعة ".

لسوف يعود في الحال، ما أن ينتهي العشاء. سيتوجه مسرعاً حتى باريس، و يمر أمام منزلها، فربما تراه.

كان أمام منزلها في الساعة الثانية، عاجزاً عن الحركة. بعد مضي نصف ساعة توقفت أمامه سيارة ترجلت منها بول، لم يحرك ساكناً، وهو يرقبها تعبر الشارع ملوحة بيديها للسيارة التي انطلقت مبتعدة.

لم يستطع أن يتحرك. إنها بول.. بول.

إنه يحبها ويسمع هذا الحب يناديها: بول..بول..، يلاحقها ويكلمها. كان يصغي ساكناً، مرتاعاً، بروح متألمة وخاوية.

ss

9

كانت البحيرة في غابة بولونيا تنبسط أمامها متجمدة تحت شمس كئيبة، وحده مُجذف رياضي، وهو واحد من أولئك الرجال الغرباء الذين يراهم الناس كل يوم، وهم يحاولون أن يحافظوا على شكل لم يعد أحد يعبأ به، لدرجة أن أشكالهم غدت بلا اسم، وحده كان يبذل جهداً كبيراً ليعيد الصيف للمكان، وينثر مجدافه أحياناً رشقة من قطرات الماء المتلألئة، الفضية، غير الملائمة للشتاء كثيراً بين الأشجار المتجمدة، مشيعاً شيئاً من الحزن.

راقبته بول، وهو يجهد في قاع القارب، وجبهته متغضنة. سوف يدور حول الجزيرة ويعود متعباً، مسروراً من نفسه. وقد اكتشفت في هذه الجولة مظهراً رمزياً، وعناداً. كان سيمون بجانبها ينتظرصامتاً. التفتت نحوه وابتسمت. نظر إليها دون أن يبادلها الابتسام. فليس ثمة أدنى مقارنة بين بول التي اجتاز مقاطعة كاملة لأجلها مساء البارحة، بول المعروضة عارية

ومستسلمة في ذهنه كالطريق التي عبرها ــ يعرف ذلك ــ وبين بول الهادئة وغير السعيدة برؤيته، المسترخية على كرسي حديدي بجانبه، وسط ديكور بال. خاب أمله، واعتقد وهو يقنع خيبته بأنه لم يعد يحبها. كانت تلك الأيام الثمانية المرهقة في الريف في ذلك المنزل الحزين، مثالاً ساطعاً على الحماقات التي يمكن أن يستدرجه خياله لاقترافها. مع ذلك لم يستطع أن يطرد من نفسه تلك الرغبة المؤلمة، ذلك الدوار للفكرة الوحيدة التي استبدت به في أن يسند رأسها المتعب إلى مسند الكرسي ساحقاً نقرتها، ويدنو بفمه من فمها المكتنز الوادع الذي سقطت منه قبل ساعتين كلمات رقيقة لطيفة، لم يعد بحاجتها. لقد كتبت له: "عد بسرعة". وندم على فرحه بهاتين الكلمتين أكثر من ندمه على انتظارهما وعلى استبشاره الأخرق وثقته. كان يفضل لو ابتأس لسبب وجيه أكثر من سروره لسبب تافه. أخبرها بذلك، فرفعت بصرها عن المجذّف وحدقت به.

– صغيري سيمون، هذه حال كل الناس. هذا ما يقولونه لك إذا كان هذا الادعاء طبيعياً.

أخذت تضحك. كان قد وصل كالمجنون إلى جادة ماتينيون في الصباح، فأفهمته على الفور بأن تلك الرسالة لا تعني شيئاً.

تابع حديثه:

– رغم ذلك فأنت لست بالمرأة التي تكتب "عد بسرعة" لأي شخص كان.

ss

– كنت وحيدة، وفي حالة مضحكة. طبعاً، ما كان عليَّ أن أكتب لك "عد بسرعة" هذا صحيح!.

لكنها كانت تفكر بالعكس تماماً. لقد حضر وهي سعيدة لأنه فعل. فقد كانت تعاني من وحدة قاتلة! إذ أن روجيه يخوض مغامرة عاطفية جديدة "لم يدعها تجهل ذلك" مع فتاة مهووسة بالسينما. لقد بدا خجلاً من ذلك، مع أنهما لم يتحدثا عنه، لكن حججه كانت من التباين بحيث لم تمدها بالقناعة عادة.

كانت قد تناولت العشاء مرتين في ذلك الأسبوع. مرتين فقط، وفي الحقيقة لولا هذا الفتى الموجود بجانبها، والتعس بسبب خطأها لكانت في غاية التعاسة. قال:

– هيا فلنعد. أنت ضجرة.

نهضت دونما احتجاج. كانت راغبة في أن تغيظه وتؤنبه بقسوة. وتحت مظهرها الحزين كانت توجد هذه القسوة، وهذه الحاجة المضحكة للثأر اللتين لا يستحقهما. ركبا سيارة سيمون الصغيرة، وبدرت منه ابتسامة مريرة وهو يتذكر ما اضطر إلى رسمه في ذهنه عن هذه النزهة المشتركة: يده في يد بول وهو يقود السيارة بيده اليسرى ببراعة عجيبة، وهذا الوجه الجميل يميل نحوه.

مد يده نحوها على غير هدى فاحتضنتها بين يديها. فكرت: وإذن، ألن يكون بمقدوري أبداً أن ارتكب أية حماقة؟.

أوقف السيارة فلم تقل شيئاً، ونظر إلى يده الساكنة بين يدي بول المبسوطتين بخفة، والمتأهبتين للابتعاد عن يده. لم يكن يرغب بغير هذا بلا شك. أسند رأسه إلى الخلف. منهك حتى الموت على نحو مفاجئ، ومستسلم للتخلي عنه نهائياً. في هذه اللحظة شاخ ثلاثين عاماً، استسلم للحياة وبدا لبول أنها تعرفه للمرة الأولى.

للمرة الأولى بدا شبيهاً بها، شبيهاً بهما، هي وروجيه، ليس لأنه قابل للانجراح فقط، فقد كانت تعرف دوماً أن هذه هي حاله، وما كانت تتخيل أحداً يمكنه أن لا يكون على هذه الحال، إنما متحرر ومتجرد من كل ما يثيره. صباه ووسامته، وقلة خبرته. وما أزعجها أنه كان يبدو لها، بشكل مشوش، سجيناً. سجين بساطته وبساطة حياته. ها هو يستدير ليس نحوها بل نحو الأشجار. لم يعد يجادل بروفيل(*) هذا الرجل نصف الميت. في هذا الوقت تذكرت سيمون المرح والمضطرب الذي قابلته مرتدياً منامته. فرغبت أن تعترف له بذلك، وأن تطرده نهائياً، وتسلمه بهذه الطريقة لحزن عابر، وإلى كثير من فتيات المتسقبل: الصغيرات واللاتي يمكن تصورهن كثيراً. سيعلمه الزمن أفضل منها، وبسرعة أقل. ترك يده ساكنة في يدها، أحسست بنبضه بأصابعها، وبغتة، وعيناها مغرورقتان بالدموع، لم تعرف إن كانت تذرفها على هذا الشاب الحنون كثيراً، أم على حياتها

(*) بروفيل: المظه الجاني/الصورة الجانية (المترجم).

SS

الحزينة قليلاً، سحبت تلك اليد نحو شفيتها وقبلتها. لم يقل شيئاً، وعاود الانطلاق. هذه أول مرة يحدث شيء ما بينهما، أدرك ذلك وأصبح أكثر سعادة أيضاً مما كان عليه بالأمس. لقد "رأته" أخيراً، وإذا كان أحمقاً، ربما يكفي ليظن أن الحدث الأول بينهما لا يمكن أن يكون إلا ليلة حب فما عليه إلا أن يتحمل مسؤولية ذلك بنفسه. سيحتاج إلى الكثير من الصبر، الكثير من الحنان، والكثير من الزمن دون شك. شعر بأنه صبور وحنون، بكل ما تبقى من حياة أمامه. وخطر بباله أن ليلة الحب هذه فيما لو جاءت فلن تكون إلا محطة، وليست مطلقاً النهاية المعتادة التي يتوقعها عموماً، ستكون ثمة أيام وليال بينهما على الأرجح، لكنها لن تنتهي أبداً. وفي الوقت ذاته غدا يشتهيها بشدة.

10

هرمت السيدة فان دن بيش. التي حظيت حتى هذه الآونة بسبب من هيئتها، وبسبب ما يمكن تسميته تقريباً بـ"القدر". بأصدقاء أكثر مما حظيت بصديقات، كان ذلك حتى زواجها من جيروم فان دن بيش. واكتشفت مع بداية الشيخوخة عزلة جعلتها تبتئس وتتشبث بأول زائر، وأول زائرة.

وجدت في بول رفيقة مثالية حتى فيما يتعلق بعلاقات العمل. كانت الشقة في جادة كليبيه مقلوبة رأساً على عقب، فتعين على بول أن تمر بها كل يوم تقريباً، وتجد السيدة فان دن بيش ألف ذريعة لإبقائها. إضافة لذلك تبدو بول، ورغم شرودها الظاهري صديقة عزيزة لسيمون، ومع أن السيدة فان دن بيش بحثت عبثاً عن أدنى بادرة تواطؤ مؤكدة بينهما، فإنها لم تستطع منع نفسها من بعض الغمز، وإلقاء تلميحات بدت أنها تمس بول. فكان هذا يخرج سيمون عن طوره. وحين رأته ذات

ss

مساء شاحباً ومحبطاً لمّحت بنقد لبول، فتضايق منها وراح يتوعدها ـ هي، أمه! ـ بفظاظة إن هي أفسدت كل شيء.

– أفسد ماذا؟ هل تريد التخلي عني؟ أتنام معها أم لا؟.

– سبق لي أن قلت لك لا.

– وماذا بعد؟ سأجعلها تفكر بذلك أن كانت لا تفكر به. هذا أفضل لك. إنها ليست في الثانية عشرة من عمرها. أنت تصحبها إلى الحفلات الموسيقية، والمعارض، والله يعلم أين.. أتحسب أن هذا يسليها؟ أيها الغبي أنت لا تفهم..

وقبل أن تنهي كلامها كان سيمون قد أصبح خارج البيت.

كان قد عاد منذ ثلاثة أسابيع. وبات يحظى من بول ـ ولأجل بول ـ ببضع ساعات، منحتها له في النهار ـ أحياناً ـ ولا يغادرها إلا في اللحظة الأخيرة محتفظاً بيدها في يده لأطول مما ينبغي. مثل الأبطال الرومانسيين الذين كان يسخر منهم كثيراً سابقاً. لذلك ارتقب يوم قررت والدته أن تقيم مأدبة عشاء بمناسبة انتهاء العمل في صالونها وستدعو إليها بول، وأضافت بأنها ستدعو روجيه أيضاً، فهو صديق بول الرسمي. كما أنها ستدعو عشرة أشخاص آخرين.

وافق روجيه. كان يريد أن يرى عن كثب هذا الغندور الصغير الذي يتعقب بول في كل مكان، والذي تتكلم عنه بحنان، وهذا أكثر طمأنة له مما لو أنها التزمت الحذر. وفوق ذلك كان يشعر بتبكيت الضمير إزاء بول لأنه أهملها منذ شهر.

لكن ميزي فتنته بحماقتها، وجسدها، وبتوبيخاتها العنيفة له، بغيرتها المرضية، وأخيراً بهواها غير المتوقع الذي تبديه له، وتلقيه بوجهه كل يوم من غير حياء، حتى أنها سحرته. تولد له انطباع بأنه يحيا في حمام تركي، وأخذ يفكر - بشكل غامض - أن هذا هو الهوى الأخير الطازج الذي سيثيره بقية حياته، فيستسلم ويلغي مواعيد بول التي أمست تقول بمثل صوته: "حسن يا عزيزي إلى اللقاء غداً". قبل أن يعود إلى الصالة الصغيرة الكريهة التي تقسم فيها ميزي دامعة العينين بأنها ستضحي بمهنتها لأجله إذا أبدى رغبة بذلك. كان يراقبها بفضول ويتساءل إلى أي مدى يمكنه أن يحتمل حماقة هذا العلاقة، ثم يضمها بين ذراعيه فتشرع بالنواح. ويغترف من العبارات المزوجة بالبلاهة والمجون - تلك التي تهمس بها - إثارة جنسية قلما خبرها. وهذا المدعو سيمون الذي يرافق بول باحتشام مفرط، كان مناسباً تماماً إذاً. حين يتخلص من ميزي سيعيد الأمور إلى نصابها، وفضلاً عن ذلك قد يتزوج من بول. لم يكن متأكداً من أي شيء، ولا من نفسه: الأمر الوحيد الذي كان متأكداً منه هو حبه الأبدي لبول، وتعلقه بها منذ بضعة سنوات.

في حفلة فان دن بيش وصل متأخراً قليلاً، وأدرك من النظرة الأولى أن هذا هو نمط العشاءات ذاته الذي يضجره حتى الموت. كانت بول تلومه غالباً على قلة اختلاطه، وفي الحقيقة لم يقابل أحداً خارج عمله، إلا لغايات محددة بدقة، أو من أجل

تجاذب الحديث، كما هي الحال حين يكون بصحبة بول، أو صديق وحيد.

كان يعيش وحيداً، ولم يكن يطيق بعض المحافل الاجتماعية المألوفة جداً في باريس إذ تعتريه على الفور الرغبة في أن يكون ماجناً أو أن يرحل.

صادف هناك بعض الأشخاص المرموقين، المعروفين في أوساطهم أو في الصحف، الجذابين جداً بالتأكيد، والذين يمكن للمرء أن يتحدث معهم عن المسرح أو السينما أثناء العشاء، أو- وهذا هو الأسوأ - عن الحب، والعلاقات بين الرجال والنساء، هذا هو الموضوع الذي يخشاه من بين المواضيع كلها لأن لديه انطباعاً بأنه لا يعرف عنه شيئاً، أو على الأقل يعجز عن صياغة معارفه في هذا المجال. حيّا الجميع بهيئة جافة، وجسده الضخم متيبس قليلاً. وكما في كل مرة أشاع وصوله شعوراً بأنه قد أحدث تياراً هوائياً لسوء الحظ. بيد أن هذا الانطباع ينصف الحقيقة لأنه كان يُحدث تبدلاً في سير الأمور دوماً، كان يبدو على الفور عذب الحديث إلى حد ما، وبهذا يغدو مرغوباً من قبل الكثير من النساء. ارتدت بول الثوب الذي يحبه، أسود اللون، وأكثر سفوراً من كل ثيابها الأخرى. ابتسم لها بامتنان، وهو يميل نحوها، لأنها الوحيدة التي يعرفها في هذا المكان. فأغمضت عينيها للحظة، متمنية بعمق أن يحتضنها بين ذراعيه. جلس بجانبها، وعندئذٍ فقط رأى سيمون مسمَّراً في

مكانه. ففكر بأنه لا بد أن يتألم من حضوره. فسحب بشكل غريزي ذراعه التي كان يضعها وراء بول. التفت، فخيم على ثلاثتهم صمت مباغت، وسط الحديث العام، صمت انفعالي من جانبين، لم يكدره سوى حركة سيمون وهو ينحني ليقدم الولاعة لبول. نظر روجيه إليهما ،نظر إلى ظل سيمون الطويل، إلى ملامحه الجادة والمفرطة الدقة قليلاً وهو ينحني أمام وجه بول الوقور فاستولى عليه نوع من الضحك الوقح. كانا محتشمين ومؤثرين ومهذبين جداً. هو يمد لها الولاعة، وهي ترفض أن تتقدم منه بجسدها، وترده وهي تقول:

- شكراً، لا. شكراً.

أما هو فمن طينة أخرى، ثمة عاهرة صغيرة تنتظره بالملذات الأكثر ألفة. ومن بعدها ليل باريس، ولقاءات كثيرة، ثم النهوض مع الفجر إلى العمل المرهق اليدوي تقريباً. مع رجال مثله، احترف مهنتهم. يهدهم التعب. في اللحظة ذاتها التي قالت فيها بصوتها الهادئ (شكراً)لم يتمالك نفسه عن إمساك يدها والضغط عليها ليذكرها بنفسه. إنه يحبها. وبوسع هذا الغلام الصغير أن يصحبها إلى الحفلات الموسيقية أو المتاحف. لكنه لن يمسها. نهض وتناول قدح ويسكي من الطاولة. شربه بجرعة واحدة فشعر بتحسن.

انقضى العشاء كما توقع. عبّر عن بعض التذمر، وحاول أن يتكلم، لكنه غرق في أفكاره، ولم يتيقظ إلا في النهاية حين سألته

السيدة فان دن بيش برغبة واضحة في أن يخبرها أن كان يعرف مع من ينام السيد؟ أجابها بان هذا لا يعنيه أكثر من معرفته ما الذي يأكله، وأنه ليس لهذا أهمية كبيرة في رأيه، وأنه من الأجدر بها أن تهتم بموائد الناس، لا بأسرَّتهم. وهذا قد يخفف عنهم همومهم.

أخذت بول تضحك لأنه بهذه الطريقة ألقى إلى الحضيض بكل حوارات العشاء. ولم يستطع سيمون من أن يمنع نفسه من تقليده. لقد أفرط روجيه في الشراب، ترنح قليلاً وهو ينهض. ولم يلحظ حركة السيدة فان دن بيش وهي تربت بغنج على كرسي بجوارها.

قال سيمون:

- أمي تطلبك.

كانا يقفان وجهاً لوجه. حدجه روجيه مفتشاً فيه بارتباك عن ذقن رخوة، أو فم ضعيف، لكنه لم يعثر عليهما، وهذا ما عكّر مزاجه.

- ألا تحسب أن بول تبحث عنك؟.

- إني ذاهب إليها.

قال سيمون ذلك ثم دار على عقبيه. أمسكه روجيه من مرفقه. اعتراه الغضب فجأة. نظر الفتى إليه بهيئة مندهشة. فقال روجيه:

- انتظر.. سأطلب منك شيئاً.

تفحص أحدهما الآخر وهما يدركان أن ليس ثمة كلام بعد. لكن روجيه دهش من حركته. وشعر سيمون بالذهول إلى حد أنه ابتسم. أدرك روجيه الحالة فتركه قائلاً:

– كنت أريد أن أطلب منك سيجاراً.

– في الحال.

تابعه روجيه بعينيه، ومن ثم اتجه نحو بول التي كانت تتحدث مع مجموعة من الناس. أمسكها من ذراعها. تبعته وسألته على الفور:

– ماذا قلت لسيمون؟.

– طلبت منه سيجاراً. ثم ما الذي كنت تخشينه؟.

قالت بارتياح:

– لا أدري. لماذا بدوت غاضباً؟.

– ولماذا أغضب؟ إنه في سن الثانية عشرة. أتظنين إنني أشعر بالغيرة؟.

أطرقت برأسها وقالت:

– لا.

– إذا كان لا بد من الغيرة، فالأولى أن أغار من جارك الجالس إلى يسارك، فهو على الأقل رجل.

تساءلت للحظة وهي تنظر إلى مكان جلوسها السابق (لمن يلمح) وحين رأته، (جارها) لم تتمالك نفسها من الابتسام. لم تكن حتى قد لحظته. ففترة العشاء كلها كانت بالنسبة لها

مضاءة بسيمون، الذي كانت عيناه مثل منارة تضيئانهـا بانتظام كل دقيقتين متحسستين وجهها، وباحثتين عن نظرتها لزمن أطول مما ينبغي. كانت تجاريه أحياناً، فيبتسم لها عندئذٍ بابتسامة لطيفة متلهفة إلى حد لا تستطيع معه إلا أن تردها له. إنه أكثر جمالاً وحيوية من جارها الجالس إلى يسارها، وخطر لها أن روجيه لم يكن يعلم شيئاً عن هذا. اقترب سيمون، ومدّ علبة السيجار إلى روجيه. فقال وهو ينتقي منها سيجاراً بحذر:

– شكراً، إنك لا تعرف بعد معنى سيجار جيد. هذه هي الملذات المتبقية لمن هم في مثل سني.

– سأدعها لك فأنا أخاف منها.

– بول، هل ما يزال الدخان يضايقك؟ فضلاً عن هذا سنعود نحن بعد قليل (التفت نحو سيمون) يجب أن استيقظ باكراً.

لم يشتك سيمون من كلمة (نحن). وقال مخاطباً ذاته "هذا يعني أنه سيتركها أمام باب منزلها كي يمضي للقاء تلك العاهرة الصغيرة. ويعني أنني سأبقى هنا محروماً منها". نظر إلى بول وظن أنه يرى الفكرة ذاتها مرتسمة على وجهها فتمتم..

– إذا لم تكن بول متعبة.. يمكنني أن أوصلها فيما بعد.

التفتا معاً نحو بول. ابتسمت لسيمون، وقررت بأنها تفضل العودة لأن الوقت بات متأخراً.

ss

لم ينطقا بكلمة في السيارة. كانت بول تنتظر من روجيه أن يقدم لها إيضاحاً أو عذراً بعد أن انتزعها من سهرة كانت تستمتع بها. توقف أمام منزلها، وأبقى المحرك دائراً... فأدركت على الفور أن ليس لديه ما يقوله، ولن يصعد، وأن الأمر برمته لم يكن من جانبه إلا ردة فعلِ مالكٍ حذرِ. ترجلت من السيارة، وهمست:

– تصبح على خير.

وما أن عبرت الشارع حتى انطلق روجيه بسرعة وهو يلوم نفسه.

كان سيمون جالساً في سيارته أمام منزل بول. وعندما شاهدها تقترب منه ناداها، فاتجهت نحوه مندهشة:

– كيف حضرت إلى هنا؟. لا بد أنك قدت السيارة كالمجنون. وماذا عن سهرة والدتك؟.

– اجلسي قليلاً.

قالها متوسلاً. وأخذا يتهامسان في الظلام، وكأن أحد ما يسمعهما. انسلت داخل السيارة الصغيرة بمهارة. ولاحظت بأنها قد اعتادت عليها. لقد اعتادت أيضاً على هذا الوجه الواثق، المتجه إليها، والذي كان ضوء المرآة العاكسة يشطره إلى قسمين. سألها:

– الست منزعجة كثيراً؟.

– لكن.. لا.. إنني..

شعرت بأنـه قريـب منهـا، وأقـرب ممـا ينبغـي. وأن أوان الكلام قد فات، ولم يعد عليه أن يتعقبها. وكـان يمكـن لروجيـه أن يـراه. "كـل هـذا جنـون" هـذا مـا قالتـه لنفسـها ثـم عـانقت سيمون.

هبت ريح الشتاء على الشوارع، وعـبرت السـيارة المفتوحـة النوافذ، فتناثر شعرهما علـى وجهيهمـا، وانسـدل بينهمـا بينمـا كان سيمون يغمر وجهها بالقبل. أما هي فقد أخذت تشم بذهول رائحة هذا الشاب، ولهاثه، وعذوبة الليل. وفجـأة غادرتـه دون أن تنطق بكلمة.

عند الفجر أفاقت وهي بـين النـوم واليقظـة. وكمـا في حلـم رأت من جديد جمة سوداء من شـعر سـيمون، مشـتبكة بشـعرها بفعل ريح الليل العنيفة، التي كانت بين وجهيهما كأنها حاجز من حرير. وتبدى لها أنها تشعر أيضاً بفمـه الملتهـب يخترقهـا. خلدت للنوم ثانية وهي تبتسم.

ss

11

انقضت عشرة أيام لم يرها خلالها. كان قد تلقى رسالة قصيرة منها في اليوم التالي لذلك المساء المذهل، والرائع الذي قبلته فيه، تأمره بألا يسعى للقائها. " قد أسيء إليك، مع أني أكن لك محبة فائقة". لم يدرك أنها تخشى على نفسها أكثر من خشيتها عليه، وقد صدّق عطفها فلم ينزعج منه، وبحث ببساطة عن وسيلة، عن فكرة تتيح له أن يواجه الحياة بدونها. لم يخطر بباله أن هذه التحفظات في الأسلوب: " قد أسيء لك كثيراً، هذا خطر.. الخ " هي غالباً عبارة عن هلالين مزدوجين يؤطران حكاية، ويأتيان مباشرة أيضاً. كانت تشعر بالخوف، وتوقعت لا شعورياً أن يأتي للبحث عنها، ويرغمها على الاستسلام للحب. اشتد بها الألم والإرهاق، فرتابة أيام الشتاء، ومسيرها الدائم على الطريق نفسها التي تقودها وحيدة: من شقتها إلى عملها، وهذا الهاتف الخائن الذي تتأسف كلما رفعت

سماعته ما دام صوت روجيه غائباً عنه، وأخيراً حنينها لصيف مديد مفقود أبداً. كل هذا دفعها إلى سلبية منعزلة، واقتضى بأي ثمن أن يحدث أمر ما.

انكب سيمون على عمله. إنه منضبط، مثابر، وصموت. كان يرفع رأسه، بين فينة وأخرى، ويحدق في السيدة أليس بنظرة شاردة، ويداعب شفتيه بإصبع مرتعشة... بول في تلك الأمسية، والطريقة المباغتة، وشبه المستبدة التي وضعت بها فمها على فمه، وبعدها أرجعت رأسه للوراء، يداها تمسكان وجهه برفق، وجه سيمون، الربح...، أخذت السيدة أليس تسعل، وقد ضايقتها هذه النظرة، فابتسم قليلاً. لقد قامت بول بحركتها مرغمة، هذا كل ما في الأمر. لم يحاول أن يتبعها بعد ذلك، ألعله أخطأ؟ دقق مراراً في أبسط أحداث الأسابيع المنصرفة، نزهتهما الأخيرة في السيارة. ذلك المعرض الممل الذي فرّا منه. العشاء الجهنمي في منزل والدته... صار كل تفصيل يستعيده، وكل صورة، وكل افتراض يزيد حدة ألمه قليلاً. ومع ذلك، فالأيام تمضي، ولم يعد يدري أيكسب الوقت أم يخسر حياته،

ذات مساء، هبط درجاً مظلماً بصحبة صديق. فألفى نفسه في حانة ليلية لا يعرفها. كانا ثملين، وطلبا شراباً، فأصبحا حزينين من جديد. ثم جاءت امرأة زنجية لتغني، فمها عريض ذو لون وردي، فشرّعت الأبواب لألف حنين، وألهبت حالة عاطفية يائسة انزلقا إليها معاً. قال صديق سيمون:

ss

- أهب سنتين من عمري مقابل حب امرأة.

فقال سيمون:

- أما أنا، فأحبها. ولن تعلم أبداً أني أحبها، أبداً.

امتنع عن تقديم أي تعليق، لكن بدا له في الوقت ذاته أن لا شيء يضيع، وأن ذلك غير ممكن، وأن كل هذا الموج في داخله عبث! دعيا المغنية إلى الشراب، إنها من بيغال، لكنها غنت من جديد كأنما هي قادمة من نوفيل أورليان، عارضة لسيمون الثِّمِل حياة لطيفة مشوبة بالزرقة، مسكونة بأطياف، وأيد ممدودة. مكث حتى وقت متأخر جداً، يصغي إليها وحيداً تماماً، وعاد إلى منزله عند الفجر وقد صحا من سكره.

* * *

انتظر سيمون بول أمام متجرها في الساعة السادسة من مساء اليوم التالي. كانت السماء تمطر، وهو يدس في جيوبه يديه اللتين يكره أن يشعر بهما ترتعشان. أحس أنه خاو على نحو غريب، وبلا أي حافز. فكر: "يا إلهي، ربما لن أحظى، إن قابلتها، بغير الألم." وارتسمت على وجهه تكشيرة اشمئزاز.

خرجت بول في الساعة السادسة والنصف. كانت ترتدي سترة وتنورة داكنتين، ووشاح لونه سنجابي كلون عينيها، وهيئتها متعبة. تقدم خطوة نحوها، فابتسمت له، وغمره فجأة إحساس بالامتلاء والطمأنينة إلى درجة أنه أغمض عينيه. إنه يحبها. ومهما حدث له، ولو بسببها، فليس من شيء يخسره.

شاهدت بول وجهه التائه، ويديه الممدودتين فتوقفت. لقد اشتاقت إليه خلال هذه الأيام العشرة، هذا صحيح، فكرت في حضوره المتواصل، وإعجابه، وعناده. فوجدت أنه قد خلق نوعاً من العادة المؤثرة التي لا تجد داع لتجنبها. لكن الوجه الذي يقدمه لها لم يكن يتوافق مع امرأة في التاسعة والثلاثين، ولا يطمئنها. إنه وجه مختلف. فجأة، بدا لها الرصيف الرمادي، والمارة، والسيارات من حولها ديكوراً مزخرفاً، متحجراً، بلا زمن، نظر كل منهما إلى الآخر، ومسافة مترين تفصل بينهما، وقبل أن تغرق ثانية في واقع الطريق الصاخب والكئيب، وبينما هي تمكث مترصدة، متيقظة وواعية بذاتها إلى أقصى حد، تقدم سيمون منها، واحتضنها بين ذراعيه.

ضمها إلى صدره، ومن دون أن يضغطها، كاتماً أنفاساً مأخوذة بالهدوء الغامر. أسند خده إلى شعرها، وحدّق أمامه بإمعان في لافتة مكتبة (كنوز الزمن) متسائلاً بغموض عن عدد الكنوز التي يمكن أن يجدها في هذه المكتبة، وعن عدد النفايات. وفي الوقت ذاته. أدهشه أن يطرح على نفسه سؤالاً بمثل هذه العبثية في تلك اللحظة الحرجة. راوده شعور بأنه قد حل مشكلة في نهاية المطاف. قالت بول:

- منذ متى وأنت هنا، يا سيمون، لابد أنك تبللت تماماً.

شمت رائحة سترته المصنوعة من التويد، ورائحة عنقه، ولم ترغب في أن تحرك ساكناً. أثارت عودته فيها ارتياحاً مفاجئاً، كما لو أن شيئاً ثقيلاً رُفع عن صدرها. قال سيمون:

– تعلمين أنه لا يمكنني العيش بدونك مطلقاً. وأشعر بالخواء، لكنني لا أتذمر البتة من ذلك، لأنني عندئذ أكون قد خسرت نفسي.. وأنتِ؟

– أنا، أوه! كما تعلم، باريس ليست مرحة كثيراً في هذه الفترة. – كانت تريد أن تضفي جواً طبيعياً على المحادثة – التقيت مجموعة جديدة، واجتمعت إلى رجلين أمريكيين، ودار الحديث حول ذهابي إلى نيويورك..

فكرت في الوقت ذاته أن من العبث الكلام بهذه النبرة في أحضان هذا الفتى الواقف تحت المطر، كما يقف عاشق ولهان، إلا أنها لم تستطع أن تحرك ساكناً. كان فم سيمون يلامس بلطف صدغيها، وشعرها ووجنتيها، مع إيقاع عباراتها. توقفت عن الكلام، وأسندت جبينهاإلى كتفه... جاءها صوت سيمون من فوقها:

– أترغبين في الذهاب إلى نيويورك؟.

حين أخذ يتكلم، أحست بذقنه يتحرك فوق رأسها، وقد منحها ذلك الرغبة بالضحك مثل تلميذة.

– الولايات المتحدة الأمريكية، لابد أنها تجربة مثيرة، ألا تعتقد ذلك؟ تجربة لم أخضها من قبل.

ss

– وأنا أيضاً. أمي تجد هذا مخيفاً. لكن، لطالما خافت من الأسفار.

كان بوسعه أن يكلمها لساعات عن أمه ورأيها في السفر، وعن أمريكا وروسيا. كان يرغب في أن يحدثها بمائة فكرة مبتذلة، وأن يخوض معها مائة نقاش هادئ، دونما تعب. لم يعد يفكر في إدهاشها أو إغوائها. باتت حاله جيدة، ويشعر أنه واثق من نفسه، وهش في آن معاً. كان عليه أن يرافقها إلى منزلها ليتمكن من تقبيلها جدياً، لكنه لم يتجرأ على تركها من بين يديه. قالت بول:

– لكنني أحتاج للتفكير بالأمر.

لم تعرف هل تكلمت عن نفسها أم عن السفر. خافت أيضاً أن ترفع رأسها وترى وجهه الذي لم يزل وجه مراهق، قبالة وجهها، خافت من أن تكشف نفسها، هي، بول العاقلة والحازمة، خافت أن تدين نفسها. ومع هذا قالت بصوت خفيض ورقيق:

– سيمون...

بعد مضي يومين، تعشيا سوية. لم تحتج بول إلا لبضع عبارات ليفهم سيمون، كيف قضت أيامها العشر الماضية: لا مبالاة روجيه، وسخريته من سيمون، ووحدتها.

لقد أملت بول بلا ريب أن تستغل هذه الهدنة لتستعيد روجيه، أو على الأقل لقاءه، ولتوثق ما انقطع بينهما. لكنها

ss

اصطدمت بطفل ساخط غاضب. كانت جهوده مؤثّرة على تواضعها: فهذه الجهود تنصب على سهرة أو عشاء، أكثر من تركيزها على الثوب الذي يحبه، أو الحديث في موضوع أثير لديه، هذه الوسائل التي تظهر على صفحات المجلات النسائية، كوصفات تافهة، وأسوأ حتى من منحطة، والتي باستخدام امرأة بارعة لها، تغدو أكثر تأثيراً من غيرها، كل هذه الوسائل لم تكن تجدي نفعاً بنظرها. لكنها لم تشعر بالخجل من استخدامها، ولم تكن خجلة حتى من استبدالها للوضوح أو لحركة رقيقة بعبارات تلهب شفتيها: (روجيه، إني تعيسة بسبب خطئك، ولابد لهذا أن يتغير). لم تكن، وهي تفكر في هذه العبارات، تتصرف بردة فعل خادمةٍ تقليدية، ولا حتى بخضوعٍ مُرٍّ. لا، إنه بالأحرى نوع من السادية موجهة "لكليهما" وتجاه ما كاناه معاً. كأنما كان ينبغي على أحدهما، هو أو هي، أن ينهض فجأة ويقول: (كفى). وقد انتظرت ردة الفعل هذه منها هي، بلهفة تضارع لهفة انتظارها لأن يقوم بها روجيه. لكن دون جدوى. لعل شيئاً ما في علاقتهما قد مات.

إذن بعد أن أمضت عشرة أيام وهي تعيد حساباتها، وتمني نفسها بالآمال الخادعة. لم تجد بداً من الاستسلام لسيمون. وسيمون هو القائل: "أشعر بالسعادة لأنني أحبك" دون أن يكون قوله تزلفاً، سيمون المتلعثم على الهاتف، سيمون الذي يحمل لها شيئاً كاملاً، أو على الأقل النصف الكامل لشيء ما. كانت

تعرف بما يكفي أنه يلزم اثنان، لمثل هذا النوع من المشاعر، لكنها تشعر بالتعب من أنها، ومنذ زمن طويل، كانت الأولى، وظاهرياً الوحيدة. كان سيمون يقول لها، وهو يتحدث عن نفسه، بأنه ليس مهماً أن يُحب المرء، بل لابد من أن يكون محبوباً أيضاً. بدا لها هذا أمراً شخصياً. إلا أنها اندهشت في بداهة هذه المغامرة التي تورطت بها، من أنها لا تشعر إلا بإرهاق شديد، لذيذ، أثَّر حتى على مشيتها، بدلاً من مشاعر الإثارة والاندفاع التي مهدت لعلاقتها مع روجيه مثلاً. وبات الجميع ينصحها بتغيير الجو، ففكرت بحزن أنها توشك أن تبدل عاشقاً بعاشق: أقل إزعاجاً، وأكثر تمدناً، وأليف جداً.. وأخذت تتجنب صورتها في المرآة. أو دَهْنِ بشرتها بمرهم مطري. في ذلك المساء وحسب، حين قرع سيمون بابها، ورأت ربطة عنقه الداكنة، وعينيه القلقتين، والبهجة الغامرة لشخصيته برمتها، وكذلك انزعاجه، مثل شخص تلقى الدلال في حياته أكثر مما ينبغي، وورَّثه أيضاً، رغبت في أن تقاسمه سعادتها. السعادة التي شبهتها له. "هذا جسدي ودفئي وحناني، إنها لا تفيدني بشيء، لكنها قد تكتسي بين يديك نكهة أخرى بالنسبة لي". أمضى ذلك الليل على كتفها. تخيلته بأية لهجة سيتساءل أصدقاؤه والناس هذا السؤال، "هل تعرف بول؟". كان الخجل من ذلك يستبد بها أكثر من خوفها من الشائعات، بل أكثر من خوفها من اختلاف العمر بينها وبين سيمون الذي يسترعى

ss

الانتباه، والذي تعرفه حق المعرفة. كانت خجلة من أن تفكر بتفكه الناس، وتندرهم وهم يتحدثون عن ذلك، وعن الحيوية التي سينسبونها لها، وعن ميلها للحياة والشباب، بينما هي لا تشعر بنفسها إلا أنها هرمة ومتعبة، وتبحث عن شيء من العزاء. واشمأزت من التفكير بأنه قد يكون معها متوحشاً ومتملقاً في آنٍ معاً، وهو ما صدفته مراراً في رجال آخرين. لقد قال الناس عنها "تلك المسكينة، بول" لأن روجيه كان يخونها، أو "تلك المتحررة المجنونة" عندما هجرت زوجاً شاباً وسيماً ومضجراً، فوقفوا بين لائم ومشفق. إلا أن أحداً لم يقف منها موقف المحتقر والحاسد الذي سيقفه منها هذه المرة.

ss

12

على العكس مما تصورت بـول، لم ينـم سـيمون في ليلتهمـا الأولى. اكتفى بضمهـا إلى صـدره ويـده فـوق ترهـل طفيـف علـى خصرها، كان ساكناً، وراح يصغـي إلى تنفسـها الرتيـب ويواقتـه مع تنفسه. وقال لنفسـه "علـى المـرء أن يكـون عاشـقاً جـداً، أو متضايقاً جداً حتـى يتظـاهر بـالنوم" وبمـا أنـه لم يعتـد إلا علـى الحالة الثانية، فقد شعر بالفخر، وبأنه مسـؤول عـن رقـاد بـول مثل كهنـة الآلهـة « فسـتا » حيـال نـارهم المقدسـة. أمضيـا إذن ليلتهمـا الأولى جنبـاً إلى جنـب، كـل منهمـا يسـهر علـى الرقـاد المُصطَنَع للآخر، حذرين وحنونين، لا يحركان ساكناً.

كان سيمون سعيداً. فقد شعر بالمسؤولية حيـال بـول، مـع أنها تكبره بخمسة عشرة عامـاً، أكـثر مـن مسـؤوليتة أمـام فتـاة عذراء في السادسة عشرة من عمرها. بدا لـه أن مـن الضـروري أن يسهر محدقاً فيها، حتى يحميها سـلفاً مـن ألم قـد يسـببه لهـا

ss

ذات يوم، سيما وأنه ذُهل من تسامح بول. واستخلص لأول مرة من هذا العناق دفعة هدية. قضى الليل ساهراً وهو يحافظ عليها من نذالاته، وهزلياته المنصرمة، ومخاوفه وهمومه المفاجئة، وضعفه. سيسعدها ويغدو سعيداً، وطفق يحدث نفسه بدهشة بأنه لم يهتم من قبل بمثل هذا الواجب أثناء فتوحاته الكبرى الكثيرة. هكذا أفاقا في الصباح، أحدهما تلو الآخر، عدة يقظات مصطنعة، وهما يتظاهران بالتثاؤب، وبأنهما يتمطيان بهدوء، لكنهما لم يفعلا ذلك سوية أبداً. حين يتقلب سيمون أو يتكئ على مرفقه، تشد بول غريزياً الأغطية فوقها، وهي فزعة من نظرته، النظرة التي تعقب الوصال، النظرة الأكثر ابتذالاً وحسماً من أية حركة أخرى. وحين تتحرك هي، بعد نفاذ صبر، يكتم سيمون أنفاسه، مغمض العينين، حذراً هو أيضاً وخائفاً من أن يفقد سعادته الليلية. فاجأته أخيراً وهو ينظر إليها بعينين نصف مغمضتين في ضياء الفجر الخفيف المنسل عبر الستائر فتسمرت وهي تلتفت إليه. شعرت بأنها عجوز قبيحة، وراحت تنعم النظر فيه حتى يراها جيداً، وحتى لا يوجد بينهما هذا الاستيقاظ الملتبس على الأقل. ابتسم سيمون وعيناه لم تزل نصف مغمضة، ردد اسمها والتصق بها. قالت: "سيمون..." ثم تشنجت، وحاولت أن تحول هذه الليلة أيضاً إلى نزوة عابرة. وضع رأسه على قلبها، وقبّلها برفقٍ على عنقها وكتفها وخدها، وهو يضمها إلى صدره، طوقته بذراعيها حين قال:

ss

– حلمت بك، ولن أحلم بعد اليوم إلا بك.

أراد سيمون أن يوصلها إلى عملها، وهو يوضح أنه سينزلها عند ناصية الشارع إن كانت تفضل ذلك. أجابت بشيء من الحزن بأنها لا تقيم اعتباراً لأحد، ومرت لحظة صمت. ولكن سيمون بادر إلى قطعها قائلاً:

– ألا تنصرفين قبل الساعة السادسة؟ هل تتغدين معي؟.

– ليس لدي وقت، سأتناول سندويشة هناك.

قال متحسراً:

– ماذا سأفعل حتى الساعة السادسة؟.

نظرت إليه وقد أصابتها الحيرة؛ هل كان بوسعها أن تقول له بأنهما ليسا ملزمين أن يلتقيا في الساعة السادسة؟. من جهة أخرى، أخذت تزودها بمتعة حقيقية فكرة وجوده أمام باب منزلها في سيارته الصغيرة كل مساء وهو متلهف «شخص ينتظرها كل مساء... شخص لا يتلفن لها بطريقة مخادعة في الساعة الثامنة. وعندما يرغب بذلك...» ابتسمت.

– من أخبركَ بأنني لست مدعوة إلى عشاء هذا المساء؟.

توقف سيمون الذي كان يزرر أكمام قميصه بصعوبة. وقال ـ بعد لحظة ـ بصوت حيادي:

– في الواقع...لا أقصد شيئاً.

مؤكد أن روجيه قد خطر على باله! لم يكن يخطر على باله سوى روجيه، تراءى له أنه متأهب لاستعادة حظوتها؛

فشعر بالخوف. لكنها تعلم أن روجيه لا يفكر بها. بدا لهـا كـل ذلك شنيعاً، فقررت أن تكون سخية على الأقل! فقالت:

– لسـت مدعـوة إلى عشـاء هـذا المسـاء. تعـال إلى هنـا، سأساعدك..

كانت قـد جلسـت عـل السرير، فركـع أمامهـا وهـو يمـد ذراعيه كما لـو كـانت أزرار قميصـه أغـلالاً. لـه معصمـي فتـى، أملسين ونحيلتين. شعرت بول فجأة، وهي تـزرر قميصـه بأنهـا تمثـل المشـهد للمـرة الثانيـة. فكـرت "يحـدث هـذا كثـيراً علـى المسرح" لكنها وضعـت خدهـا علـى شعـر سـيمون، مـع ضحكـة صغيرة سعيدة. قال سيمون معانداً:

– وماذا سأفعل حتى الساعة السادسة؟.

– لا أدري.. ستعمل.

– لن أستطيع، إنني سعيد جداً.

– هذا لا يمنع عن العمل!.

– بالنسبة لي، بلى. من جهـة أخـرى أعـرف مـا سـأفعل، سأتنزه وأفكر بك، ثم سأتغدى وحيداً وأنا أفكر فيك، وبعد ذلك سأنتظر الساعة السادسة. تعرفين أنه ليس لدي شيء من صفـات الشاب النشيط.

– ماذا ستقول لمحاميك؟.

– لا أدري. لمـاذا تريديـن أن أضيِّـع وقـتي في الإعـداد لمستقبلي ما دام حـاضري وحـده يهمـني، – أضـاف مـع تحيـة تبجيل – ويرضيني..

هزت بول كتفيها. لكن سيمون فعل بالضبط ما كان قد قاله - مثلما فعله في الأيام اللاحقة - تجول في شوارع باريس مبتسماً لكل الناس. ومرَّ عشر مرات أمام المتجر الذي تعمل فيه بول وهو يسير بسرعة عشرة/كم في الساعة بسيارته، يقرأ كتاباً تارة، ويلقي رأسه إلى الخلف أحياناً، مغمضاً عينيه. كان يبدو مسرنماً، سعيداً، وهذا ما حرك مشاعر بول في نهاية المطاف، وجعله أثيراً عندها أكثر، أخذت تشعر بعطائها، وأدهشها أن يبدو ذلك لها ضرورياً فجأة.

* * *

سافر روجيه منذ عشر أيام، في الفترة الحرجة بينه وبين بول، وراح يتنقل من عشاء عمل إلى آخر، حتى أصبحت مقاطعة الشمال تمثل له طريقاً زلقاً ولا نهائي، ومطاعم ذات زينات غامضة. بات يتلفن أحياناً إلى باريس، طالباً رقمين في آن معاً، فيصغي لتظلمات ميزي قبل أن يبثَّ همومه لبول - أو بعده - كان يشعر أنه واهن العزم وعاجز، وأن حياته تشبه هذا الإقليم. أخذ صوت بول يتغير، وغدا في آن معاً قلقاً وأكثر بُعداً، وأصبح يرغب بلقائها. لم يستطع أبداً قضاء خمسة عشر يوماً بعيداً عنها دون أن يشتاق لها. مؤكد أنه كان بوسعه المباعدة بين لقاءاتهما في باريس، حيث يعرف أنها مستعدة لرؤيته، ودوماً تحت تصرفه؛ أما مدينة "ليل" فتذكره بها كما في أيامهما الأولى، حين كان يحيا متعلقاً بحياتها، خائفاً من غزوها كخوفه

الآن من فقدها. أخبرها في اليوم الأخير بموعد عودته. سادت لحظة صمت، ثم استطردت مباشرة بلهجة حازمة "يجب أن أراك" لم يطرح أسئلة لكنه حدد موعداً معها في اليوم التالي.

عاد إلى باريس ليلاً. وألفى نفسه أمام منزل بول حوالي الساعة الثانية صباحاً. تردد لأول مرة في الصعود إليها. لم يكن متأكداً أنه سيلقى وجهها السعيد وهي ترغم نفسها على تهدئته بعد أن استثارته مفاجآته، فاستبد به الخوف. انتظر عشرة دقائق، وقد انزعج من نفسه، لأنه راح يتعلل بالأعذار الواهية: "إنها نائمة، تعمل كثيراً" الخ ثم انطلق من جديد. تردد أمام منزله أيضاً، ثم عاد فجأة على أعقابه ومضى إلى منزل ميزي. كانت نائمة، واستقبلته بوجه متورم. كانت قد انصرفت متأخرة جداً مع منتجيها المحترمين ... كانت سعيدة جداً.. فضلاً عن أنها كانت تحلم به قبل وصوله مباشرة... خلع ملابسه بسرعة، ونام على الفور رغم مداعباتها. للمرة الأولى لم يكن يشتهيها. قام بواجبه آلياً عند الفجر، استمع إلى حكاياتها، وقرر أن كل شيء على ما يرام. أمضى الصباح عندها، وغادرها قبل عشرة دقائق من موعده مع بول.

ss

13

قالت بول:

– يجب أن أجري اتصالاً هاتفياً. بعد الغداء، سيكون الأوان قد فات.

نهض روجيه حين كانت تغادر الطاولة، فابتسمت بول له بتلك الابتسامة الصغيرة المعتذرة التي لم يكن يسعها التخلص منها. وذلك من باب اللباقة الاجتماعية، أو المجاملة الودية عندما يضطرها الموقف للمغادرة. راحت تفكر في هذا الأمر وهي تهبط الدرج الرطب الذي يفضي إلى الهاتف. الأمر مختلف مع سيمون، فهو مثابر وسعيد، ومستعد دوماً للاهتمام بها، يفتح لها الأبواب، ويشعل لها لفائف التبغ، ويحتفي بأدنى رغباتها التي غدا يفكر فيها قبلها، والتي أصبحت أشبه بمجموعة ملاطفات أكثر من كونها مجموعة واجبات. كانت قد غادرته في ذلك الصباح وهو في عز نومه، يحتضن الوسادة بين ذراعيه،

ss

وخصلات شعره الأسود متناثرة، وتركت له رسالة قصيرة: «سأتصل بك ظهراً» لكنها التقت روجيه عند الظهر. وها هي تفاجئه الآن بتركه وحيداً كي تهاتف شاباً كسولاً عاشقاً. هل سيلاحظ ذلك؟. كان مقطب الجبين، ومهموماً من غدر الأيام، وبدا أكبر سناً.

رفع سيمون السماعة فوراً. أخذ يضحك حين قالت: "آلو" وضحكت بدورها.

– هل استيقظت؟.

– منذ الساعة الحادية عشر. إنها الواحدة الآن. اتصلت لتوي بمركز الهاتف، لأتأكد من أن الهاتف ليس معطلاً.

– لماذا؟.

– لأنه كان عليك أن تتصلي بي في الساعة الثانية عشرة، أين أنتِ؟.

– في مطعم لويجيس. سأبدأ بتناول الغداء عما قليل.

قال سيمون:

– آه! حسن.

سادت لحظة صمت، وأخيراً أضافت بجفاف:

– أتغدى مع روجيه.

– آه! حسن...

قالت:

– يبدو أنك لا تعرف غير.. آه ! حسن.. سأكون في المتجر في الساعة الثانية والنصف على أبعد تقدير. ماذا ستفعل؟.

قال سيمون بسرعة :

- سآخذ بعض الملابس من منزل والدتي وأعلقها على المشجب في منزلك. بعد ذلك سأبحث عن تلك اللوحة المائية التي أعجبتك في معرض ديسنوس.

اعترتها لبرهة الرغبة بالضحك. إنه سيمون بذاته. وهذه طريقته في ربط جملتين.

- لماذا؟ هل تنوي وضع خزانة ملابسك في المنزل؟.

راحت تفتش في الوقت ذاته عن ذرائع مقنعة كي تثنيه عن ذلك. لكن ما هي؟ فهو نادراً ما يبرح منزلها. ولم توجه له حتى هذه اللحظة لوماً..

قال سيمون :

- أجل. ثمة كثير من الناس حولك. أرغب أن أعمل كلب حراسة، وبثياب تنكرية خاصة.

قالت :

- سنتكلم في ذلك فيما بعد.

شعرت أنها تتلفن منذ ساعة. وروجيه وحيد في الأعلى. وسيطرح عليها أسئلة. ولن تستطيع أن تمنع نفسها عن الشعور بالإثم تجاهه.

قال سيمون قبل أن يغلق السماعة :

- أحبك.

وهي تخرج، سرحت شعرها عفوياً أمام مرآة خزانة الثياب، فلمحت أمامها وجه رجل يقول لها : «أحبك».

ss

كان روجيه يشرب. فدهشت بول لذلك، لأنها تعرف بأنه لا يشرب على الإطلاق قبل المساء.

– هل أنت على ما يرام؟.

– لماذا؟ آه! الشراب؟ لا، إني متعب اليوم...

قالت:

– لم أرك منذ زمن طويل.

وبينما كان يوافق بشيء من الشرود أحست بالدموع تطفر من عينيها. ذات يوم سيصل بهما الحال إلى هذا الوضع ،بحيث سيقول كل منهما للأخر: "لم أرك منذ شهرين، أم ثلاثة؟". وسيحصيان الشهور بهدوء. روجيه بتصرفاته الفكاهية ووجهه المتعب، وهذه الهيئة الطفولية بالرغم من قسوته وقوته... أشاحت بوجهها. كان يرتدي سترته الرمادية القديمة التي شاهدتها معلقة– جديدة تقريباً– على كرسي في حجرة نومها، في بداية علاقتهما. كان مزهواً بها. مع أنه نادراً ما أهتم بأناقته، فضلاً عن أنه كان أضخم من أن يبدو أنيقاً. قالت بهدوء:

– خمسة عشر يوماً. هل أنت بخير؟.

– أجل... بالمحصلة لا بأس.

لاذ بالصمت. انتظر دون شك أن تقول "وأعمالك؟"، بيد أنها لم تفعل ذلك. كان عليها أن تحدثه عن سيمون أولاً، وبعد ذلك يمكنه الركون إليها دون أن يضطر فيما بعد إلى أن يقاسي إحساساً بأنه كان مثار سخرية. فقال:

ss

- هل تسليت؟.

صمتت. أخذ صدغاها ينبضان، وأحست أن قلبها قد همد. وسمعت نفسها تقول:

- أجل، التقيت سيمون مراراً.

- آه! ذلك الفتى الظريف؟ أما يزال شغوفاً بك؟.

هزت رأسها ببطء، وأكثر مما ينبغي، دون أن ترفع عينيها. وقال روجيه:

- وما زال يسليك؟.

رفعت رأسها. لكنه لم ينظر إليها بدوره. وجّه جُلّ اهتمامه إلى قطع الليمون في صحنه، وظنت أنه فهم. فقالت:

- أجل.

- أهو يسليك؟ أم أنه يقوم بأكثر من تسليتك؟.

أخذا يتبادلان النظرات. وضع روجيه ملعقته على صحنه. راحت تتأمل بحنان غامر التغضنان الطويلان حول فمه، ووجهه الساكن، وعيناه الزرقاوان المطوقتان بظلال الزرقة. وقالت:

- أكثر من تسليتي.

عادت يد روجيه إلى الملعقة وأمسكتها. خطر لها أنه لم يعرف أبداً كيف يأكل ليمونة بطريقة صحيحة. كان الزمن يبدو في آنٍ معاً متوقفاً ويطن في أذنيها. قال روجيه:

- سأعتبر أنه ليس لدي شيء أقوله!.

ss

وبهذا أدركت أنه كان تعيساً. فلو كان سعيداً، لعاتبها وأنبها. أما الآن، فيبدو كالمرجوم بالحجارة، وقد أُلقي عليه الحجر الأخير. تمتمت:

- كنت تستطيع أن تقول ما تريد!.

- أنت نفسك تقولين ذلك في صيغة الماضي الناقص.

- لأخفف عنك ياروجيه. لو أخبرتك إن كل شيء ما يزال متوقفاً عليك، فماذا سيسعك أن تجيبني؟.

لم يجب. كان يحدق في غطاء الطاولة.وتابعت:

- كنت ستقول لي بأن حريتك تستبد بك، وأنك تخشى كثيراً أن تفقدها، بدل... أخيراً، بدل أن تبذل الجهد الضروري لاستعادتي.

قال روجيه فجأة:

- أقول لك إني لا أفقه شيئاً. طبعاً، أمقت فكرة أن... على كل حال هل هو موهوب؟.

- ليس المقصود مواهب من هذا النوع. إنه يحبني.

شاهدته يسترخي قليلاً فاحتقرته لبرهة. كان يطمئن نفسه: فكل ذلك عبارة عن أزمة عاطفية، وسيبقى وحده العاشق والذكر الحقيقي. فأضافت:

- بصراحة، مهما يكن، ليس بوسعي القول إنه يتركني مهملة على أي صعيد.

أخذت تفكر بعصبية، ونزق. وهي تقول لنفسها: "إنها المرة الأولى التي أؤذيه فيها قصداً". قال روجيه:

ss

- سأعترف بأنه لم يخطر ببالي عند دعوتك إلى الغداء أنني سأتحمل حكاية عبثك مع فتى صغير السن.

قالت بول مباشرة:

- لعلك كنت تفكر بجعلي أخمن حكاية عبثك مع امرأة فتية.

قال وهو يكز على أسنانه:

- إنه عادي أكثر من عملك.

ارتعشت بول. تناولت محفظتها ونهضت.

- أظنك ستكلمني عن عمري؟.

- بول...

وقف بدوره، وجرى خلفها في الأبواب التي تلاشت فيها وعيناها مغرورقتان بالدمع. أدركها في سيارتها. كانت تحاول عبثاً إدارة المحرك. مرّر يده عبر باب السيارة، ووضع المفتاح الذي كانت قد نسيته في يده. التفتت نحوه بوجه شاحب.

- .. بول.. تعرفين جيداً.. كنت منحطاً. أعذريني.. تعرفين أن ذلك لم يخطر ببالي.

قالت:

- أعرف. أنا أيضاً أخطأت. من الأفضل أن لا نلتقي لفترة.

بقي ساكناً، بهيئة تائهة. وجهت إليه ابتسامة صغيرة.

- إلى اللقاء يا عزيزي.

انحنى نحو باب السيارة، وقال:

- بول، إنني متمسك بك.

انطلقت بأقصى سرعة حتى لا يرى الدموع التي تفضحها. شغّلت عفوياً ماسحات الزجاج. وانتزع منها تصرفها ابتسامة صغيرة متأسفة. إنها الساعة الواحدة والنصف ولم يزل لديها الوقت الكافي لتعود إلى شقتها، وتستعيد رباطة جأشها، وتعيد طلاء المساحيق. كانت تأمل، وتخشى معاً أن يكون سيمون قد غادر المنزل. اصطدمت به عند الباب الخارجي.

- بول، ما بك؟.

خاطبها في غمرة ذعره بصيغة الاحترام من جديد.

فكرت: "من الواضح أنني بكيت، سيشفق عليّ" وانهمرت دموعها. لم تجب. طوقها في المصعد بذراعيه، ولحس دموعها، ورجاها أن تكف عن البكاء، وأقسم على نحو مبهم بأنه «سيقتل ذلك الشخص»، وهذا ما جعلها تبتسم... «لابد أنني كنت قبيحة». قالت بانفعال من قرأ هذه العبارة ألف مرة. أو سمعها في السينما مائة مرة.ثم جلست فيما بعد على الأريكة، بجوار سيمون، وأمسكت يده، وقالت:

- لا تسألني عن شيء.

- ليس اليوم. لكنني سأسألك ذات يوم عن كل شيء. في يوم قريب جداً. لا أحتمل أن يبكيك أحد. (صرخ بغضب) لا أحتمل أن ينجح أحد في إبكائك، وأنا..، أنا، لن أستطيع أبداً أن أبكيك..؟.

نظـرت إليـه وقـالت لنفسـها: "مؤكـد أن الرجـال كـانوا حيوانات كاسرة".

- هل أنت حريص على هذا؟.

قال سيمون وهو يخفي وجهه في عنق بول:

- نعم، فأنا أفضّل أن أتحمل العذاب بنفسي.

حين عادت مساءً، كـان قـد شـرب ثلاثـة أربـاع زجاجـة ويسكي، وحتى أنه لم يكن قد خرج. وأكد لها بكبرياء بأن لديه هموماً شخصية. وباشر نقاشاً حول مصاعب الحياة. ثم رقد علـى السرير. بينما راحت تنزع حذائه بمزيج من الحنان والذعر.

* * *

وقف روجيه أمام النافذة يرقب الفجر. إنهـا إحـدى مـزارع "ليل دو فرانس" الفندقية التي يشابه فيه الريـف التصـور الـذي يتوهمه المتعبون مـن المدينـة. هضـاب هادئـة، وسـهول خصبـة، وعلى امتداد الطرق لوحات إعلانـات. أمـا الآن، في هـذا الوقـت الفريد الذي ينبلج فيه الصبح، فقد أخذ ريف الطفولة الحقيقي، والنائي يتقدم محاصراً روجيـه برائحـة المطـر الواخـزة والبـاردة. التفت، وقال:

- طقس ساحر للعطلة الأسبوعية.

وبعد قليل أضاف لذاته: (هذا رائع. أحب هذا الضباب. لو أسـتطيع أن أكـون وحيـداً).تقلبـت مـيزي في سـريرها الدافـئ، وقالت آمرة:

SS

– أغلق النافذة، الطقس بارد.

وضعت الغطاء على كتفيها، وها هي تشده، رغم الارتخاء السعيد لجسدها، بسبب تصورها المبهر لهذا النهار، في هذا المكان المجهول. بصحبة روجيه الصامت، والشارد. وهذه الحقول على مد البصر.. اعترتها رغبة بالتأوه. ولكنها قال بجفاف:

– طلبت منك إغلاق النافذة.

كان قد أشغل لفافة غلواز، هي الأولى في هذا اليوم، وراح يتذوق طعمها اللاذع، شبه المزعج، ولكنه اللذيذ. وها هي ميزي تنتزعه من حلم يقظته الصباحي. ويحس بعدوانيتها تطعنه في ظهره بنوع من نفاذ الصبر. فحدث نفسه "ليتها تغضب، وتنهض فوراً، وتستقل القطار وتعود إلى باريس! أما أنا فسأتنزه ماشياً في الحقول طوال النهار، وسأجد كلباً شارداً يرافقني" ذلك لأنه كان لا يطيق البقاء وحيداً.

لكن ميزي ترددت بعد أمرها الثاني. كان بمقدورها التغاضي عن النافذة وأن تعاود النوم، أو تكرر المشهد في ذهنها الذي لم يزل مشوشاً بالنعاس، أخذت تختلج جملاً مثل: "إنني امرأة تشعر بالبرد. وهو رجل... عليه أن يغلق النافذة" وفي الوقت نفسه أوحت لها غريزتها الصباحية يومئذٍ أن لا داعي لتحدي روجيه. فاختارت حلاً وسطاً.

– كان عليك إغلاق النافذة، وطلب الفطور يا عزيزي.

التفت روجيه خائباً، وقال دون ترو:

– عزيزي؟ ماذا تعني كلمة: عزيزي؟.

أخذت تضحك. فتابع:

– لا أطلب منك أن تضحكين. هل تعرفين فقط ما المقصود بهذه الكلمة: عزيزي؟ هل أنا عزيزك؟ أتعرفين مرادفاً آخر لفعل أعز؟.

أخذ يفكر وقد اندهش هو نفسه من كلماته: "لابد أنني مغتاظ بما فيه الكفاية؛ فعندما أبدأ بالاهتمام بمفردات امرأة، هذا يعني أن النهاية وشيكة".

قالت ميزي:

– ماذا دهاك؟.

أخرجت من السرير رأسها المذعور الذي بدا له مضحكاً، ونهديها اللذين لم يعد يشتهيهما. وبدت له كعاهرة! فقال:

– العواطف مهمة جداً. إنني بالنسبة لك هوى عابر. متعة مؤقتة ملائمة. لذلك لا تناديني "عزيزي" لاسيما في الصباح؛ أما ليلاً، فقد أتغاضى عنها قليلاً!.

احتجت ميزي مذعورة تماماً:

– لكني أحبك يا روجيه.

ولأنه جريء جداً، صرخ بمزيج من الضيق والراحة:

– آه! لا، لا تتفوهي بأي شيء كان.

تلك العبارة أكدت له بأنها تعيد حالتهم إلى تلك الحالة الكلاسيكية جداً، والمألوفة تماماً بالنسبة لرجل مرهق من حب

ss

ليس في محله. لبس كنزته فوق بنطاله، ثم خرج، وهو نادم على ترك سترة التويد. لكنه كان سيضطر إلى الدوران حول السرير لارتدائها. كانت هذه المناورة ستعرض للخطر السرعة الضرورية لخروجه. تنشق في الخارج الهواء البارد فأحس بالدوار. كان عليه أن يعود إلى باريس، ودون أن يلتقي بول. ستنساب السيارة على الطرق الرطبة، سيتناول قهوته عند مدخل أوتوي، في باريس الهامدة يوم الأحد. عاد ودفع حسابه وغادر كاللص.

ستجلب ميزي سترته، وسيرسل سكرتيرته مع باقة ورد لأخذها من منزلها. فكر دون مرح "لأنني لا أحسن آداب السلوك". سار لبرهة، عاقداً حاجبيه، ثم مد يده نحو الراديو ـ تذكر: كلمة «أعز» فتمتم: أعز، إنها تعني بول وأنا... شعر بأنه لم يعد يحس بالميل نحو أي شيء بعد أن خسرها.

ss

14

بعد أسبوع، اشتمت بول رائحة تبغ في الشقة. فتحت نافذة الصالون، ونادت: "سيمون..." وعندما لم تتلق جواباً راودها الخوف لبرهة ثم اندهشت من ذلك. اجتازت الصالون ودخلت حجرة نومها. فوجدت سيمون ينام متمدداً على السرير، وياقة قميصه مفتوحة. نادته مرة ثانية فلم يحرك ساكناً. عادت إلى الصالون، وفتحت الخزانة، تفحصت زجاجة الويسكي. وردتها بتكشيرة اشمئزاز قصيرة. وبحثت عن قدح فلم تجده، فاتجهت إلى المطبخ. وعثرت على كأس مغسول يتصفى في المغسلة. بقيت ساكنة لبرهة، ثم خلعت معطفها بهدوء، وفي الحمام، تزيبت وسرحت شعرها بعناية. وفجأة رمت فرشاة الشعر بسرعة وهي تلوم نفسها على تأنقها، وشعرت بأنها ضعيفة، لأنها كانت ترمي من وراء ذلك إلى إغراء سيمون!.
وعندما عادت إلى حجرة نومها، هزّته، وأضاءت مصباح طاولة

SS

السرير. تمطـى، وتمتم باسمها ثم استدار إلى جهـة الحائط.
فقالت بجفاء:

- سيمون.

وهو يتقلب، ظهر وشاح بول الذي غطى وجهه فيه قبل أن ينام. كانت قد سخرت من فيتشيته بما فيه الكفاية. لكنها لم تعد ترغب بالضحك. وأخذت تشعر بأنها تنساق إلى غضب هادئ. أدارته نحو النور. فتح عينيه وابتسم، ولكنه قطع ابتسامته على الفور.

-.. ماذا يحدث؟.

- أريد أن أكلمك.

قال وقد جلس على السرير:

- كنت أعرف ذلك.

نهضت لأنه كان عليها أن تمنع حركتها العفوية في رد الغرة السوداء التي تنسدل على عينيه. اتكأت على النافذة وقالت:

- سيمون، لا يمكن لهذا الأمر أن يستمر. هذه آخر مرة أقول لك فيها هذا الكلام. يجب أن تعمل. لقد وصلت بك الحال إلى أن تشرب في السر.

- لقد نظفت الكأس فقط. فأنت تكرهين الفوضى!.

قالت بقسوة:

- أكره الكذب والفوضى والخمول. بدأت أنزعج منك.

ss

كان قد نهض، وشعرت به يقف خلفها، شاحب الوجه، فلم تلتفت إليه قصداً. فقال:

- اشعر أنك لم تعودي تحتملينني. ثمة شعره بين الحب المطلق والكره المطلق، أليس كذلك؟.

- لا أقصد المشاعر يا سيمون. أقصد أنك تشرب، ولا تفعل شيئاً، وتتحامق أيضاً. قلت لك أن تعمل. قلت لك ذلك مائة مرة. وهذه هي المرة الأخيرة.

- وبعد ذلك؟.

- بعد ذلك لن أستطيع رؤيتك.

قال متأملاً:

- تستطيعين هجري بهذه البساطة؟.

- أجل...

التفتت نحوه وقالت:

- اسمع يا سيمون...

كان قد جلس ثانية على السرير، وراح يتأمل يديه بسحنة غريبة. رفعهما ببطء، ووضعهما على وجهه. مكثت مذهولة. لم يبك ولم يتحرك. وتهيأ لبول أنها لم تشاهد قط إنساناً مثله. تمتمت اسمه، كأنها تريد أن تنقذه من خطر لا تعرفه، ثم توجهت نحوه. كان يهتز برفق على حافة السرير، ووجهه لم يزل متوارياً. ظنت لبرهة أنه ثمل، ومدت يدها لتوقف هذا

الاهتزاز. ثم حاولت أن تزيح يديه، فراح يقاوم، وانتهت إلى الركوع أمامه، وإمساكه من معصميه.

– سيمون، انظر إلي.. سيمون...، كف عن هذه الكوميديا...

وعندما أزاحت يديه نظر إليها بوجه جامد تماماً، وأملس، كوجوه بعض التماثيل، وبالنظرة العمياء ذاتها. وضعت غريزياً يديها على عينيه.

– ما بك؟ سيمون... قل لي ما بك...؟.

انحنى أكثر مما ينبغي، ووضع رأسه على كتفها مطلقاً تنهيدة، كشخص أضناه التعب. وقال بهدوء:

– ما حدث هو أنك لا تحبينني، وأن كل ما بوسعي القيام به لا يجدي شيئاً. وأنني كنت أعرف منذ البداية أنك ستطردينني. وأنني كنت أترقب ذلك، خاضعاً وأحياناً آملاً.. وهذا هو الأسوأ، – استطرد هامساً – آملاً أحياناً، لا سيما في الليل ـ فشعرت هي بالخجل ـ ثم إن هذا الأسوأ حصل اليوم. مع أني أشعر به منذ ثمانية أيام، ولم يكن بوسع كل ويسكي العالم أن يطمئنني. وكنت أحس أنك تبغضينني برفق. وهذا... يا بول... وبعد ذلك يا بول...

كانت قد طوقته بذراعيها. وضمته إلى صدرها، وعيناها مغرورقتان بالدموع. وأخذت تهمس بكلمات مطمئنة:

– سيمون، أنت مجنون... لست إلا طفلاً.. عزيزي.. حبيبي المسكين..

راحت تقبل جبهته وخديه، وتصورت لبرهة – بقسوة حيال نفسها – أنها بلغت أخيراً طور الأمومة. في الوقت نفسه، كان أمر ما فيها يعاند، ويلذ له أن يخفف عن سيمون ألماً قديماً مشتركاً. فقالت:

– إنك متعب. مثلت دور الرجل المهجور، وكنت ضحية دورك. إنني حريصة عليك يا سيمون، حريصة عليك جداً. كنت غافلة في هذه الفترة بسبب عملي، هذا كل ما في الأمر.

– هذا كل ما في الأمر؟ ألا تريدين أن أغادر؟.

قالت مبتسمة:

– ليس اليوم. لكنني أريدك أن تعمل.

– سأفعل كل ما تريدين. تمددي بجانبي يا بول. انتابني خوف شديد! إنني بحاجة إليك. قبليني. لا تتحركي بعد. أكره هذه الملابس المعقدة.. بول..

بعد ذلك، لم تحرك ساكناً. أخذ يتنفس مقابلها برفق، منهكاً، وحين وضع يده على رقبتها، اجتاحها إحساس بالتملك، حزين ومؤلم جداً إلى حد ظننت أنها تحبه.

ذهب في اليوم التالي إلى العمل، وتصالح نوعاً ما مع رب عمله، راجع بعض الملفات، وهاتف بول ست مرات، ثم اقترض

ss

نقوداً من أمه التي ارتاحت لذلك. وعاد إلى منزل بول في الساعة الثامنة والنصف بهيئة مرهقة من العمل.

كان قد أمضى ساعتين في نهاية النهار يلعب الورق في حانة، وهي النهاية الوحيدة التي يمكنه بها أن يحصل على هذه العودة المظفرة. راح يفكر في قرارة نفسه أنها مهنة مسئمة جداً بالتأكيد. وأنه سيجد صعوبة فائقة في تعويض ساعات البطالة.

15

اعتاد روجيه وبول أن يذهبا في شهر شباط لقضاء أسبوع في الجبل. نصَّ الاتفاق بينهما على أن يحاولا الاحتفاظ لنفسيهما ببضعة أيام هادئة في كل شتاء، أياً تكن حالتهما الانفعالية – وآنذاك، لم يكن المقصود سوى حالة روجيه – وذات صباح، اتصل روجيه ببول في مكتبها، وأخبرها أنه سيغادر بعد عشرة أيام، وعندما سألها إن كان عليه أن يحجز تذكرة لها. خيَّم الصمت بينهما. وقد تساءلت للحظة بذعر عما يبرر له هذه الدعوة: حاجته الغريزية لها. أم تبكيت الضمير، أم رغبته بتفريقها عن سيمون؟. لعلها لم تركن إلا للسبب الأول. لكنها تعرف حق المعرفة أنه مهما قال لها، فإنها لن تثق به مطلقاً بما يكفي لأن تكون دون ألم في هذه الإجازة. وفي الوقت ذاته كانت ذكرى روجيه في الجبل تمزق قلبها.

روجيه المفعم بالحيوية، يهبط المنحدرات كالعاصفة وهو يسحبها خلفه مذعورة. جاء صوته ضعيفاً:

ss

- إذن؟.

- لا أظن ذلك ممكناً يا روجيه. سنتظاهر بـ.. في نهاية المطاف. بأننا لا نفكر بشيء آخر.

- تماماً كما قلت. حتى لا أفكر بشيء إلا بالرحيل، وأؤكد لك أنني قادر على ذلك.

- كنت سأذهب معك لو أنك.. (كادت أن تقول لو أنك قادر على التفكير بي، وبنا، لكنها سكتت).. لو أنك بحاجة ماسة لكي آتي معك. لكنك ستكون على ما يرام لوحدك، أو مع... أي شخص آخر.

- حسن. - إن أحسنت الفهم - فأنت لا تريدين مغادرة باريس الآن؟.

قالت لنفسها: «يفكر بسيمون؛ لماذا لا يستطيع أحد فصل المظاهر عن الحقيقة؟».وأدركت - الآن- أن وجود سيمون أصبح منذ شهر حياتها اليومية. ولعلها مدينة له بهذا الرفض. بحيث أن أمراً ما في قرارة نفسها عارض على الفور دعوة روجيه. فقالت:

- إن شئت...

سادت لحظة صمت.

- لستِ مرتاحة يا بول الآن. يبدو أنك متعبة. إذا لم تذهب معي فاذهبي كما يحلو لك، أنت بحاجة لذلك.

ss

كان صوته حنوناً وحزيناً، أحست بول بالدموع تطفر من عينيها. أجل، إنها بحاجة إليه، بحاجة إلى أن يرعاها دوماً بدل أن يقترح عليها هذه الأيام العشرة الزهيدة. كان عليه أن يعرف ذلك؛ فثمة حدود لكل شيء، حتى للأنانية الذكرية. قالت:

– سأذهب بكل تأكيد. سنتبادل البطاقات البريدية من قمة لأخرى.

أغلق السماعة – على كل حال– لعله طلب منها مساعدة ببساطة فأبت أن تؤديها له. يا له من حب رائع تكنه له! لكنها شعرت في اللحظة ذاتها وعلى نحو غامض بأنها على صواب، ومحقة في أن تكون متطلبة، وأن تتحمل تبعة تطلباتها.

إنها على كل حال امرأة محبوبة بشغف. وقد ارتادت حتى الآن بصحبة سيمون مطاعم صغيرة في الحي، لوحدهما دوماً. لكنها حين عادت ذلك المساء، لقيته على عتبة الباب، يرتدي طقماً داكناً، وقد سرَّح شعره على أكمل وجه، وانبسطت أساريره. لاحظت مرة أخرى وسامته، واستطالة عينيه الرشيقة، وتقاطيع فمه الخالية من العيوب، وفكرت بسرور أن هذا الفتى الذي يمضي النهار في انتظارها مرتدياً ملابسه، له جسد فارس، وجلاد قلوب في آنٍ معاً. ابتسمت وقالت:

– يا للأناقة! ماذا حدث؟.

ss

- سنخرج.. سنتعشى في مكان فخم ونرقص. ولكن لو أكلنا بيضتين على طبق هنا، فسأكون مسروراً أيضاً، لكنني أرغب بالخروج معك.

نزع عنها معطفها. لاحظت أنه رش على نفسه العطر كثيراً. وفي حجرة نومها، ثمة فستان سهرة، سافر جداً، ممدد على سريرها، كانت قد ارتدته مرتين في حياتها.

- هذا هو الثوب الذي أفضله. هل تريدين كوكتيلاً؟.

كان قد حضّر قدحي كوكتيل من النوع الذي تحبه. جلست بول على سريرها محتارة من نفسها. لقد نزلت من الجبل لتجد نفسها في سهرة اجتماعية!. ابتسمت له. فقال:

- أأنتِ مسرورة؟ لست متعبة على أية حال؟ إن شئت، سأخلع هذا الطقم حالاً ونبقى هنا.

وضع ركبتيه على حافة السرير، وهو يقوم بحركة ليخلع سترته.اتكأت عليه، ودست يدها تحت قميصه، فشعرت بدفء بشرته تحت كفها. كان نابضاً بالحياة، مفعماً بالحيوية. قالت:

- هذه فكرة رائعة جداً. هل أنت مصر على هذا الثوب؟ سأبدو فيه شبه عارية.

- أحبك عارية، وهذا أكثر ثوب يجعلك عارية. فتشت جيداً حتى وجدته.

تناولت قدحها وشربته. كان بمقدورها أن تأوي إلى شقتها وحيدة، وتتمدد بصحبة كتاب، بشيء من الحزن، كما كان

يحدث قبل أن تعرفه، بيد أنه حاضر، يضحك، وهو سعيد، وتضحك معه. ويريد أن تعلمه رقصة الشارلستون مهما كلف الأمر، تلك الرقصة التي تهرمها عشرين عاماً.

وها هي تترنح على السجادة في رقصها، وترتمي بين ذراعيه لاهثة، فيضمها إلى صدره، وتضحك أكثر، ناسية روجيه تماماً والثلج والأحزان. كأنها شابة جميلة.

طردت سيمون خارجاً، وراحت تتزين بشيء من الإغراء، وترتدي هذا الثوب الساخر، أما هو فينقر على الباب فاقداً صبره. وعندما خرجت نظر إليها مبهوراً، وغطى كتفيها بالقبل وهما يخرجان.

جعلها تشرب قدح كوكتيل آخر، هي التي لم تعتد على الشراب. فأصبحت سعيدة، سعيدة على نحو عجيب. صادفت في الملهى، على طاولة مجاورة لطاولتهم، امرأتين أكبر سناً منها بقليل، كانتا تعملان معها أحياناً، ووجهتا إليها ابتسامة مندهشة. ولما نهض سيمون ليراقصها، سمعت هذه العبارة القصيرة: "كم عمرها الآن؟".

اتكأت على سيمون. لقد تبدد كل شيء. أصبح ثوبها مضحكاً بالنسبة لعمرها، وسيمون جذاباً أكثر مما ينبغي، وحياتها أكثر عبثية بقليل. طلبت من سيمون أن يرافقها. لم يعترض، فأدركت أنه، هو أيضاً، سمع العبارة.

خلعت ملابسها بسرعة. أخذ سيمون يتحدث عن الأوركسترا. ودت لو تطرده. تمددت في الظلام بينما راح يخلع ملابسه. لقد أخطأت بتناول كأسي الكوكتيل، وتلك الشمبانيا لأنها ستبدو في الغد متعبة القسمات. أصبحت كالمخبولة من الحزن. عاد سيمون إلى حجرة النوم، وجلس على حافة السرير، ووضع يده على جبينها. فقالت:

- ليس هذا المساء يا سيمون، إنني متعبة.

لم يجب، وبقي ساكناً. شاهدت ظله في ضوء الحمام؛ وقد أحنى رأسه كأنه يفكر. وبعد قليل قال:

- بول، يجب أن أكلمك.

- تأخر الوقت، وأنا نعسانة. إلى الغد.

- لا، أريد أن أكلمك الآن. وستصغين إلي.

فتحت عينيها من جديد وهي مندهشة. إنها المرة الأولى التي يستعمل فيها سلطة عليها.

- سمعت مثلك ما قالته العجوزان خلفنا. لا أطيق أن يحزنك ذلك. فهذا ضعف لا يليق بك ويهينني.

- لكنك يا سيمون تصنع دراما من لا شيء.

- لا أصنع دراما، بل على العكس، أريد أن أمنعك من أن تصنعيها. كنت ستخفين ذلك عني بالطبع. لكن هذا ليس من حقك. لست غراً يا بول. إنني قادر على فهمك، وربما مساعدتك. أنا سعيد جداً معك، وأنت تعرفين ذلك، لكن

طموحي لا يقف عند هذا الحد. أريدك أن تكوني سعيدة معي. وأنت تحرصين على روجيه الآن بدل أن تكوني سعيدة معي. لكن لابد أن تعتبري قصتنا كأمر إيجابي، ويجب أن تساعديني على بنائها. لا أن تعتبريها مجرد صدفة سعيدة. هذا كل شيء.

تكلم بهدوء، لكن بصعوبة. أصغت إليه بول بدهشة وبنوع من الأمل. فقد حسبته غير واع، ولم يكن كذلك، وظن أن بوسعها أن تجدد كل شيء. لعلها تفلح في ذلك على كل حال...؟.

– تعرفين أني منطقي. عمري خمسة وعشرون عاماً، ولم أتعلق بالحياة قط قبلك. ومؤكد أنني لن أتعلق بها كثيراً بعدك. إنك المرأة والكائن الإنساني الذي أحتاجه. أنا متأكد من ذلك، وإن شئت، تزوجتك غداً.

– عمري تسعة وثلاثون عاماً!.

– ليست الحياة صحيفة أنثوية. ولا سلسلة تجارب قديمة. تكبرينني بأربعة عشر عاماً وأحبك. وسأظل أحبك لزمن طويل. هذا هو المهم. لذلك لا أحتمل أن تنحطي إلى مستوى هؤلاء المسنات العجائز على سبيل المثال، ولا إلى مستوى الرأي العام. المشكلة بالنسبة لك ولكلينا هي روجيه، ولا توجد مشاكل أخرى.

– سيمون، أعذرني لـ ... لأني ظننت...

ss

- كل ما في الأمر هو أنك لم تتصورِ أنني أفكر. ابتعدي قليلاً الآن.

اندس إلى جوارها، قبلها، وضاجعها. لم تحتج بتعبها. وانتزع منها لذة عنيفة لم يجعلها تعرفها من قبل. داعب بعد ذلك جبهتها المتفصدة عرقاً، وردَّ الأغطية فوقها بعناية، وقال:

- نامي، سأهتم بكل شيء.

في الظلام، ندت عنها ابتسامة صغيرة حنونة. ووضعت فمها على كتفه، فاستقبل هذه المداعبة بهدوء سيد أولمبي. بقي فترة طويلة مستيقظاً، قلقاً، ومزهواً بصلابته.

ss

16

اقترب عيد الفصح، وراح سيمون يقضي أيامه فوق الخرائط التي أخفاها بين ملفات مديره، أو بسطها على سجادة بول. خطط بهذه الطريقة لرحلتين سياحيتين إلى إيطاليا، وثلاث إلى إسبانيا. ويتطلع الآن إلى اليونان. كانت بول تصغي إليه دون أن تتفوه بكلمة : لن تقضي في أحسن الأحوال إلا عشرة أيام. كانت تشعر أنها مرهقة، حتى ليصعب عليها أن تستقل القطار. لعلها رغبت بمنزل في الريف، وبأيام متشابهة كأيام الطفولة! لكن قلبها لم يطاوعها على تثبيط همة سيمون. راح يتصور نفسه مسافراً، يقفز من العربة ليساعدها على النزول، ويقودها إلى سيارة استأجرها لعشرة أيام قادمة، ستقلهما إلى أفخم فندق في المدينة، حيث سيقيمان في حجرة مزينة بالورود، لأنه أرسل برقية بهذا الشأن، ناسياً أنه لم يحسن المراسلة يوماً، ولا الاحتفاظ ببطاقة. كان يحلم ولم يزل يحلم، إلا أن كل أحلامه

انصبت على بول، واندفعت نحوها كما تندفع الأنهار الهائجة نحو بحر هادئ، لم يشعر أبداً أنه حر مثلما شعر خلال تلك الشهور التي أمضى كل نهاراتها في المكتب نفسه، وكل أمسياتها قرب الكائن ذاته، وفي الشقة ذاتها، مربوطاً إلى الرغبة نفسها، والقلق نفسه، والألم نفسه. لأن بول ظلت تتهرب أحياناً، ولم تحسم الأمر، وتبتسم بحنان لعباراته المغرمة. كانت تصمت حين يدور الحديث عن روجيه. وغالباً ما راوده إحساس بصراع عبثي، منهك ولا مناص منه، لأنه أيقن أن الزمن الذي يمضي لا يحقق له أي مكسب. لم يفلح في محو ذكرى روجيه، وعليه أن يقتل في بول شيئاً هو روجيه، وهو نوع من الجذر المتأصل، والمؤلم الذي تحتمله بجلد، ووصل به الحال أحياناً إلى التساؤل إن لم يكن هذا الجلد، وهذا الألم المسلّم به هما اللذان جعلاه عاشقاً لها، وربما هما اللذان يغذيان حبه. لكنه صار يحدث نفسه أغلب الأحيان: « بول تنتظرني، بعد ساعة، سأحتضنها بين ذراعي » وكأن روجيه لم يوجد أبداً بالنسبة له، وكأن بول تحبه هو، سيمون، وكأن كل شيء هو غبطة بسيطة وساطعة. وفي تلك اللحظات، كانت بول تفضله، عندما يفرض عليها تحالفهما كبديهة وحقيقة لا يسعها إلا أن تقبل بها. لقد ملت كثيراً تحفظاتها الخاصة. حين تغدو وحيدة وحسب، تبدو لها فكرة روجيه الحي بدونها إثماً عظيماً، فتتساءل بذعر كيف وصلا إلى هذه الحال. وحين تقول « هما » و « نحن » فإنها تعني

ss

دوماً هي وروجيه، أما سيمون فليس سوى « هو ». لكن روجيه لم يكن يعلم شيئاً من ذلك. عندما سيضجر روجيه من حياته، سيأتي ليفضي إليها بهمومه، وسيحاول دون شك أن يستعيدها. وربما يفلح في ذلك. وسيغدو سيمون مهاناً حتماً، وستصبح من جديد وحيدة، تنتظر المكالمات الهاتفية المريبة، والإهانات الصغيرة المؤكدة. كانت تثور على قدرها الخاص، وعلى إحساسها بأن كل ذلك محتم. ثمة في حياتها شخص محتم: إنه روجيه.

لكن هذا لا يمنعها أن تحيا مع سيمون، وتتأوه بين ذراعيه في الليل، وأن تضمه أحياناً إليها بإحدى تلك الحركات التي ينتزعها الأطفال وحدهم، أو العشاق البارعون جداً، وهي حركة استئثار وذعر بسبب تصور عرضية كل متعة إلى حد أنه هو نفسه لم يلحظ شدتها. كانت بول في تلك اللحظات تبلغ الشيخوخة، وتلامس هذا الوجد العجيب والفريد لحب يميز الشيخوخة، وبعد ذلك تلوم نفسها، وتلوم روجيه الذي لم يكن حاضراً، ولم يكن مضطراً للافتراق عنها. حين كان روجيه يضاجعها، كان سيدها، وكانت مملوكته، فهو يناسبها سناً، وكل شيء متفق مع بعض القواعد الأخلاقية أو الجمالية التي لم تتوان حتى ذلك الحين عن مراعاتها. أما سيمون فلم يشعر أنه سيدها. إذ لم يسعه أن يتصور أن تصنعه اللاشعوري قد يتسبب في فقدها. لقد رضي عن كل موقف خضوع يتيح له النوم على كتف صديقته

SS

– كأنه بحاجة إلى حمايتها – ويجعله ينهض في الفجر ليجهز الفطور، ويدفعه لطلب النصيحة في كل أمر، إنه موقف يثير مشاعر بول لكنه يضايقها بغموض، ويزعجها كأنها إزاء أمر غير طبيعي. بدأت تحترمه. إذ أصبح يعمل الآن، وقد اصطحبها ذات يوم إلى إحدى المحاكمات في فرساي، حيث مثل أمامها مشهداً رائعاً لمحام شاب، يعتصر يديه، ويبتسم بتسامح للصحفيين، ويلتفت نحوها دوماً كأنه يلتفت نحو قطب إثارته، ويحدد أحياناً الأدلة الشفهية التي يعرضها على مجهولين ليختلس منها نظرة ،ويتأكد إن كانت تنظر إليه. لا، لم يكن يمثل أمامها كوميديا عن الطلاق. لذلك راحت تحدق فيه، وقد أفعمت نظرتها بكل إعجاب، وكل اهتمام ممكنين، تلك النظرة التي كانت تتحول فور أن يدير ظهره لها، إلى نظرة حنان ممزوجة بشيء من الفخر. وكان النسوة ينظرن إليه كثيراً، فشعرت بالرضى، إذ ثمة شخص يعيش لأجلها. وفي نهاية المطاف، لم تعد مشكلة فارق السن بينهما مطروحة عليها؛ ولم تعد تتساءل (وبعد عشر سنوات، هل سيظل يحبني؟). بعد عشر سنوات، قد تكون وحيدة أو مع روجيه. أمر ما في قرارة نفسها راح يردد عليها ذلك بعناد.

وكان حنانها لسيمون يتضاعف عند تصورها لهذا الرياء الذي لا حيلة لها فيه (ضحيتي، ضحيتي العزيزة، صغيري

سيمون!).ولأول مرة أحست باللذة المريعة في أن تحب من سيتألم لأجلها حتماً.

هذه الـ (حتماً) ونتائجها. صارت تفزعها الأسئلة التي سيطرحها عليها سيمون يوماً، وسيكون محقاً في طرحها فهو المتألم "لماذا تفضلين روجيه علي؟ بماذا يتفوق هذا الفظ الشارد على الحب الجامح الذي أهبه لك كل يوم؟". وأخذت تجن لمجرد فكرة أن عليها أن تشرح لروجيه. لن تقول (هو) بل ستقول (نحن) لأنها لم تفلح في فصل حياتهما. وكانت تجهل السبب. ربما لأن الجهود المؤلمة، والمستمرة التي بذلتها في سبيل حبهما منذ ست سنوات أصبحت أثمن من السعادة عندها. ولعلها بسبب كبريائها لم يسعها أن تحتمل أن تذهب جهودها سدى، وربما لأن هذا الكبرياء نفسه فيها ـ لكثرة ما تلقى من ضربات ـ صار يتغذى عليها تقريباً، وانتهى إلى اختيار وتخصيص روجيه سيداً لها في الألم. وفي نهاية المطاف ظلّ يفلت منها دوماً. وغدت هذه المعركة المشبوهة مبرر وجودها. لكنها لم تكن مخلوقة للنضال؛ وقد حدثت نفسها بذلك أحياناً، وهي تداعب شعر سيمون الحريري الناعم. كانت تود لو تستطيع أن تندس في الحياة كما تدس يدها في شعره: وقد همست له بذلك. كانا يمكثان على هذه الحال لساعات طويلة في الليل الحالك، قبل أن يناما. يشبكان أيديهما ويتهامسان، وتتخيل أحياناً أنها مع رفيقة دراسة في سن الرابعة عشرة، في إحدى تلك المراقد

الوهمية التي تتحدث فيها الفتيات بصوت خفيض عن الله والرجال. كانت توشوش، وسيمون المفتون بهذه السرية، يتكلم همساً بدوره:

– وكيف كنت ستعيشين؟.

– كنت سأبقى مع زوجي مارك. كان لطيفاً، وفي الحقيقة اجتماعياً جداً وواسع الثراء أيضاً.. لكنني أردت أن أجرب...

راحت تحاول أن تشرح له. كيف اتخذت حياتها هذا الشكل فجأة، بقرارها البسيط، حين انغمست بالمهن الأنثوية، في عالم معقد، وصعب جداً ،ومهين. حدثته عن مساعيها وهمومها المالية، وابتساماتها وصمتها. كان سيمون يصغي إليها وهو يحاول أن يستوضح من هذه الذكريات شيئاً يتعلق بحبه.

– وبعد ذلك؟.

– أظن أنني كنت سأعيش بتلك الطريقة، وسأنتهي إلى خيانة مارك خفية، لا أدري.. لكنني كنت سأرزق بطفل. لأجل هذا وحسب...

صمتت. فضمها سيمون إلى صدره؛ صار يرغب بطفل منها، صار يرغب بكل شيء. ضحكت وداعبت عينيه بشفتيها وتابعت:

– كان الأمر مختلفاً في سن العشرين. أذكر جيداً أني قررت أن أكون سعيدة.

أجل، تذكرتْ جيداً. "كانت تمشي في الشوارع، وعلى الشطآن بسرعة شهوتها؛ ولم تكن تتوقف عن المشي، وعن البحث عن وجه، وعن فكرة، عن فريسة. كانت الرغبة في السعادة تحوم فوق رأسها بعد أن حامت فوق هامة ثلاثة أجيال من الرجال، دون أن تصادف عقبات، وقد لا تصادف ما يكفي منها أبداً. أما الآن فلم تعد تهتم إلا بالأخذ. ولم تعد تسعى إلا إلى الاحتفاظ . أن تحتفظ بمهنة ورجل، ومع أنهما هما نفسهما منذ زمن طويل، إلا أنها لم تعد تثق بهما وهي في سن التاسعة والثلاثين". غفا سيمون بجوارها فهمست:

- حبيبي، هل نمت...؟.

نبهته هذه الكلمات من رقاده، وأنكر أنه نائم، واندس في حضنها في الظلام، وفي فوحان عطرها، فامتزجت حرارتيهما وهما سعيدان على نحو عجيب.

ss

17

إنها لفافة تبغه الثلاثـون، وقـد أحـسّ بذلـك وهـو يسـحق عقبها في المنفضة المليئة. أحس بالنفور، فأضاء مرة أخرى مصباح السرير. إنها الساعة الثالثة صباحاً، ولم يفلح في النوم. فتح النافذة فجأة، فلفح الهواء البارد وجهه وعنقه بقسوة مما اضطره إلى إغلاقها من جديد، واستند عليها كأنه "ينظر" إلى البرد. أهمل أخيراً الطريق الخالية وألقى نظرة على مرآته، وأشاح برأسه سريعاً لأن صورته لم ترضه. تناول علبة الغلواز عن طاولة السرير، ووضع لفافة منها في فمه بعفوية ثم أعادها إلى الطاولة. لم يعد يحب هذه الحركات العفوية التي حازت على قسط كبير من نكهة الحياة بالنسبة له؛ ولم يعد يحب حركات الرجل الوحيد، ولم يعد يعجبه طعم التبغ. وحتى يداري صحته، لابد أن يصبح مريضاً. مؤكد أنه يتحسر على بول، لكن هذا لا يكفي. لابد أنها نائمة الآن في أحضان ذلك الفتى المدلل، وقد نسيت

كل شيء. أما هو، روجيه، فليس أمامه إلا الخروج والعثور على مومس والشرب، مثلما كانت تخمن بول من جانبها. أحس بذلك، وشعر أنها لم تحترمه أبداً بحق.

وجدته دوماً فظاً وشرساً. مع أنه وهبها أفضل ما عنده، والأكثر رسوخاً. تلك هي حال النساء: يظهرن في غاية التطلب وفي منتهى العطاء، ويدعنكم تركنون إلى الثقة التامة، ثم يختفين ذات يوم لأتفه سبب. لأنه لم يكن هنالك شيء بالنسبة لبول أتفه من العلاقة مع سيمون. أما الآن، فإن ذلك الفتى يحتضنها بين ذراعيه، وينكب على وجهها المستسلم، وجسدها الوديع، المستغرق تماماً في المتعة والـ.. التفت إلى الوراء في الحجرة، وأشعل أخيراً لفافة التبغ، وراح يستنشق دخانها بنهم فائق، ثم أفرغ المنفضة في الموقد. كان عليه أن يضرم النار، لأن بول كانت تشعلها كلما جاءت، فتركع على ركبتيها أمام الموقد، وهي تراقب تصاعد اللهب، وتسعّره أحياناً بحركة من حركاتها الرشيقة والهادئة، ثم تنهض من جديد وتتراجع قليلاً، لتغدو الحجرة وردية، ومليئة بالظلال، ومضطربة، فتراوده الرغبة في مضاجعتها، ويصرح لها بذلك. لكن مضى زمن طويل على هذا. منذ متى لم تعد بول تأتي؟. عامان أم لعلها ثلاثة؟ كان قد تعود على لقائها في منزلها. فذلك أيسر له. وقد كانت تنتظره دائماً.

لم يزل يمسك المنفضة في يده ثم تركها تسقط فتدحرجت على الأرض دون أن تنكسر. ودّ ولو أنها تحطمت وأخرجته من

جموده، ودّ لو تناثرت الشظايا. بيد أن المنفضة لم تنكسر؛ فالمنافض لا تتشظى إلا في الروايات والأفلام؛ ولعله بحاجة إلى إحدى تلك المنافض الزجاجية الرديئة التي تزدحم بها شقة بول، وليس إلى هذه المنفضة الجيدة، لابد أنه كسر على الأقل مائة قطعة مختلفة في منزل بول، وقد سخرت منه دوماً؛ وآخر مرة كسر كأس كريستال رائع، تتلون فيه الويسكي بلون أسمر ذهبي غير مألوف. من جهة أخرى، كل شيء منسجم في هذه الشقة التي يملكها ويحكمها. كل شيء مترابط ولطيف هادئ. ورغم ذلك، فقد ظن أنه يهرب منها كلما غادرها ليلاً. وها هو الآن وحيد في منزله، يعتريه غضب عابث لأن المنفضة لم تنكسر. اضطجع ثانية وأطفأ النور، واعترف أنه بائس لبرهة، قبل أن ينام ويده على قلبه.

ss

18

التقوا ذات مساء على عتبة أحد المطاعم، وأدى ثلاثتهم تلك الباليه القصيرة ،الكلاسيكية والغريبة والمألوفة في باريس: من بعيد أومأت بحركة من رأسها إلى الرجل الذي تأوهت على كتفه. وتنهدت ونامت؛ فرد على إيماءاتها بمثلها، ونظر إليه سيمون لبرهة دون أن يضربه كما كان يرغب. جلسوا على طاولتين غير متباعدتين، وطلبت قائمة الطعام دون أن ترفع بصرها. وهذا مشهد مألوف تماماً بالنسبة لصاحب المطعم، وبعض الزبائن الذين يعرفون بول. أوصى سيمون على الشراب بصوت حازم، وسأل روجيه صديقته على الطاولة الأخرى عن الكوكتيل الذي تفضله. رفعت بول أخيراً بصرها، فابتسمت لسيمون ونظرت في اتجاه روجيه. إنها تحبه، هذه بديهة توصلت إليها مذ أن رأته على عتبة المطعم، بهيئته العنيدة: لم تزل تحبه، وبدأت تخرج من رقاد مديد وعديم الجدوى. نظر إليها بدوره، ثم ندت عنه ابتسامة انقطعت على الفور.

ss

قال سيمون:

– ماذا تشربين؟ قدح نبيذ ابيض؟.

– ولم لا؟.

نظرت إلى يديها على الطاولة، وإلى أدوات الطعام المرتبة جيداً، وإلى كُمْ سيمون الذي يحتك بذراعها العارية. شربت بسرعة. راح سيمون يتكلم بدون حماسته المعتادة. بدا أنه ينتظر شيئاً منها، أو من روجيه. لكن ما هو؟ هل يسعها أن تعبر الصالة وتقول لروجيه "كفى، لنعد؟" هذا ما لم يحدث، وما لم يعد من الفطنة والمعقولية أن يحدث الآن.

رقصوا بعد العشاء؛ وشاهدت روجيه يحتضن بين ذراعيه امرأة سمراء، ليست قبيحة هذه المرة، شاهدته وهو يهتز أمامها برعونته المعهودة. نهض سيمون وأخذ يرقص برشاقة، وعيناه شبه مغمضتين، إنه رشيق وناحل، بدأ يترنم فتناومت بين ذراعيه. فجأة لامست ذراعها العارية يد روجيه التي تطوق ظهر المرأة السمراء، ففتحت عينيها. تبادلا النظر، روجيه وبول، كل واحد من خلف كتف رفيقه. إنها رقصة سلو هادئة، وبلا إيقاع. أخذ كل منهما يحدج الآخر على بعد عشر سنتمترات بنظرات حيادية، دون أن يبتسما، ودون أن يتعارفا على ما يبدو، ثم تركت يد روجيه ظهر المرأة فجأة، وامتدت نحو ذراع بول ومستها بأناملها، فارتسم تعبير مبتهل على وجه روجيه جعلها

تغمض عينيها، غيّر سيمون مكانه فغاب كل منهما عن نظر الآخر.

رفضت في تلك الليلة أن تنام مع سيمون متذرعة بتعب لم تكن تشعر به. ظلت في فراشها فترة طويلة شاخصة النظر. كانت تعرف ما يوشك أن يحدث، وتعرف أنه لا يوجد، ولم يوجد أبداً حل آخر ممكن، فاستسلمت له في الظلام. وشعرت بغصة في حلقها. نهضت في منتصف الليل ودلفت إلى الصالة التي ينام فيها سيمون على أريكة. شاهدت جسد الفتى الممدد، واضطراب أنفاسه. وقد أضاءه النور الباهت المتسرب من حجرتها. راحت تنظر إلى رأسه الغائص في الوسادة، وإلى الثلم الصغير بين نقرتين من رقبته؛ فرأت فيه شبابها النائم. لكنه لما تقلب نحو الضوء وهو يتأوه، هربت. لم تعد تتجرأ الآن على التحدث إليه.

كانت رسالة روجيه المستعجلة تنتظرها في المكتب صبيحة اليوم التالي. "يجب أن أراك، لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر أكثر، من ذلك. اتصلي بي". اتصلت به واتفقا أن يلتقيا في الساعة السادسة مساءً. بدا ضخماً ومشتت الذهن في هذا المتجر المخصص للنساء. اتجهت نحوه وأدخلته إلى صالون صغير مزدحم بكراسي الخيزران الذهبية اللون، إنه ديكور مزعج!. عندئذ فقط شاهدته كما هو. تقدم خطوة نحوها، ووضع يديه على كتفيها. أخذ يتلعثم قليلاً، وهذا دليل على التأثر البالغ لديه:

ss

- كنت تعساً جداً.

- وأنا أيضاً.

سمعت نفسها تجيب وهي تتكئ عليه قليلاً، وأخذت تبكي أخيراً، وهي تتوسل في قرارة نفسها لسيمون أن يغفر لها هاتين الكلمتين الأخيرتين. وضع رأسه على شعرها وقال بنبرة عطوف:

- لا تبك الآن.

وقالت أخيراً بلهجة اعتذار:

- ...حاولت ...بصدق...

شعرت بأن عليها أن تقول ذلك لسيمون، وليس له. أصابتها حالة تشوش. وصار عليها أن تتنبه لنفسها دوماً، إذ لا يمكن للمرء مطلقاً أن يقول كل شيء للشخص ذاته. ظلت تبكي ووجهها ساكن. أما هو فكان صامتاً. وبعد قليل تمتمت:

- قل أي شيء.

- كنت وحيداً. فكرت في الأمر. اجلسي الآن وخذي منديلي، سأشرح لك.

شرح لها أنه لابد من رعاية النساء، وأنه تهور، وأنه أدرك أنه المخطئ في كل ما حدث. إنه لا يلومها على عدم انسجام موقفها، ولن يتكلما في هذا الأمر بعد. راحت تقول له" أجل، أجل، أجل روجيه" وتراودها الرغبة بالبكاء أكثر أيضاً، وبالضحك. وفي الوقت ذاته، تشم الرائحة المألوفة لجسده وتبغه، وتشعر في قرارة نفسها أنها أُنقذت. وتلاشت.

ss

*　　*　　*

بعد عشرة أيام، كانت في منزلها، وحيدة بصحبة سيمون للمرة الأخيرة.

قالت :

– نسيتَ هذا.

مدت إليه بربطتي عنق، دون أن تنظر اليه، وشعرت أنها منهكة. منذ ما يقارب الساعتين وهي تساعده على توضيب حقائبه. أمتعة خفيفة لعاشق شاب لكنه فوضوي. كانا يعثران في كل مكان على قداحة سيمون، وكتب سيمون، وأحذية سيمون. لم يتفوه بأية كلمة، وتَملَّكَ نفسه جيداً، وقد أدرك جيداً ما يجري حوله، وهذا ما كان يخنقه. قال :

– هذا يكفي. عليك فقط أن تضعي البقية عند البواب.

لم تجب. ألقى نظرة حوله محاولاً أن يفكر "المرة الأخيرة، المرة الأخيرة" لكنه لم يفلح. أخذ يرتعش بعصبية. قالت بول وهي ترفع بصرها نحوه :

– لن أنسى.

– وأنا أيضاً. هذا أمر مختلف. أمر مختلف.

وترنح في منتصف الطريق، وقبل أن يلقي نحوها بوجهه الشاحب احتضنته بين ذراعيها مرة أخرى، احتضنت حزنه مثلما كانت قد احتضنت سعادته. ولم تستطع إلا أن تحسده على هذا الحزن الشديد، والأسى الشفيف، والألم الممض كأنها

لن تحظى بهم أبداً بعد. تحرر فجأة منها وخرج، تاركاً حقائبه. تبعته واتكأت على الدرابزين وصرخت :

– سيمون، سيمون، – وأضافت دون أن تعرف السبب – سيمون، إنني عجوز الآن، عجوز... عجوز... عجوز.

لكنه لم يسمعها. أخذ يهبط الدرج بسرعة، وعيناه مغرورقتان بالدموع؛ وركض كأنه مغتبط، فهو في سن الخامسة والعشرين. أغلقت الباب خلفها بهدوء واتكأت عليه.

في الساعة الثامنة، رن الهاتف. كانت تعرف ما توشك أن تسمعه حتى قبل أن ترفع السماعة.إنه روجيه وسيقول: "أعتذر، لدي عشاء عمل، سآتي فيما بعد، هل...".



دار [illegible]رام للثقافة والكتب

دمشق - هـ 6316870 - 6816234

تلفاكس 6316870، ص.ب 36130